الفصل السابع

الدويلات المستقلة

الدولة الغزنوية ودورها فى نشر الإسلام فيها

* الدولة الغورية.
* دولة سلاطين المماليك.
* الدولة الخلجية.
* دولة بنى تغلق.

الغزنويون والفوريون فى بلاد الهند

١ - الغزنويون:

٢ - اعتمد السامونيون على الأتراك فى أمور دولتهم، فكان قوام جيشهم منهم، وولوهم المناصب العسكرية والمدينة الرفيعة، فزاد نفوذهم، وعلا شأنهم فى دولة آل سامان، والمعروف أن الأتراك من العناصر التى كانت مصدرا للقلاقل والاضطرابات فى الدول التى استعانت بهم، ومن بينها الدولة السامانية، فقد أضعفوها، وعملوا على زوالها.

ومن أبرز هؤلاء الأتراك الذين أرتفع شأنهم فى الدولة السامانية "ألبتكين"، كان يعمل فى الجيش السامانى، وما زال يرتقى فى شلك الوظائف حتى ولى منصب حاجب الأمير عبد الله بن نوح (٣٤٣ - ٣٥٠هـ، ٩٥٤ - ٩٦١م) ومن ثم ارتفع شأنه، وازداد نفوذه فى الدولة السامانية، حتى أ، الوزير كان يأتمر بأمره، ويلتزم بتنفيذ تعليماته وتوجيهاته.

لم تصف الأمور لألبتكين، إذ خشى الأمير عبد الملك بأسه، وعول على إبعاد عن حاضرة دولته، فأسند إليه. ولاية خراسان فى عام ٣٤٩هـ/ ٩٦١ ولما توفى الأمير عبد الملك سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١م تشاور الأمراء فى الدولة السامانية مع ألبتكين - الذى كان أكبرهم فيمن يراه مناسبا لتوليه أمر الدولة السامانية فوقع اختيار ألبتكين

على عم الأمير المتوفى، ورفض اختيار منصور بن عبد الملك خلفا لأبيه، لأنه شاب حدث لم تحنكه التجارب، على أن اقتراح ألبتكين لم يعمل به، ذلك أن الأمراء ولوا منصورا دون أن ينتظروا وصول ألبتكين. لذلك نشأ العداء بين الأمير الجديد، منصور بن عبد الملك وبين ألبتكين، الذى رفض اختياره كما قلنا أميرا على السامانين، ولم تجد محاولات ألبتكين فى التودد للأمير السامانى.

خشى الأمير منصور من انتقاض ألبتكين عليه فى خراسان فاستدعاه إلى بلاط، ولما علم ألبتكين أن الأمير السامانى يضمر له السوء، رفض التوجه إليه، وأظهر التمرد والعصيان فعزله منصور عن خراسان، وأسند ولايتها إلى أبى الحسين سيمجور، فقصد ألبتكين بلخ. وعول الأمير السامانى على إخضاع هذا القائد الثائر، فأرسل إليه جيشا، اشتبك معه وهزمه، فتوجه ألبتكين إلى غزنة، وحاصرها واستولى عليها من حاكمها السامانى، "أبو بكر لوبك"، ولم يكتف بذلك غزا زبلستان وأقام بها إمارة مستقلة عن سادته السامانين عاصمتها غزنة، على أن الأمير منصور السامانى لم يقف مكتوف اليدين إزاء تمرد ألبتكين، فبذل عدة محاولات لسحق تمرده، وباءت كلها بالفشل، فكف عنه، وبذلك قوى شأ، ألبتكين فى إمارته، وتوطد فيها سلطانه.

ولما توفى ألبتكين سنة ٣٥٢هـ / ٩٦٣م خلفه فى حكم غزنة ابنه أبو إسحاق إبراهيم - قائد جيوش خراسان السامنية - غير أنه لم يستطيع السيطرة على مقاليد الأمور فى غزنة، إذ ثار عليه أهلها، وطردوه من بلدهم، فاستنجد بالأمير منصور بن نوح، فأمده بجيش مكنه من استرداد غزنة وحكمها باسم السامانيين. وبذلك استرد السامونيون نفوذهم على غزنة.

على أ، أبا إسحاق لم يلبث أ، توفى دون أن يترك وريثا يعقبه فى حكم غزنة، فحكمها بلكاتين أحد مماليكه وضرب النقود باسمه فى غزنة سنة ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م وخلف بيرى بلكاتكين وهو فيما يبدو من أهالى غزنة، غير أنه لم يستطيع القيام بأعباء الحكم فثار عليه الجند وخلعوا طاعته، ونظروا فيمن يصلح لحكم غزنة، فلم يروا أفضل من سبكتكين لما عرفوا من علقه ودينه وكمال الخلال فيه وصرامته، ومما يجدر ذكره أن سبكتكين هو أحد موالى ألبتكين وكان حاجبا لابنه إسحاق "عليه مدار أموره، وبيده مناظم شئونه" وولى سبكتكين إمارة غزنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م.

لما أفضى الأمر على سبكتكين، استطاع سياسته، وبعد عمته اكتساب محبة الرعية وأمراء البلاد المجاورة له، ولم يلبث الخليفة العباسى أن اعترف بحكومته، فاصطبغ حكمه بهذا الاعتراف بالصبغة الشرعية، وتحققت أمنية له طالما اختلجت فى صدره فتقلب بناصر الدولة، وبعث له الخليفة بالعقد والخلع التقليدية، وأصبح سبكتين المؤسس الحقيقى للدولة الغزنوية الشرعية. وعلى الرغم من استقلاله الفعلى ظل يظهر ولاءه للسامانين.

لم يكتف سبكتكين بحكم غزنة، بل عمل على بسط نفوذه على البلاد المجاورة، فبسط سيطرته على "قصدار" القريبة من غزنة، كما سيطر على خراسان، وشرع فى غزو أطراف الهند، وسطر على كثير من المعاقل والحصون هناك "فاتسعت رقعة ولايته" وعمرت أرض خزانته، وأشفقت النفوس من هيبته وتوفى سنة ٣٨٧هـ / ٩٩٧م وإليه يرجع الفضل فى وضع أساس إمبراطورية الغزنويين، إذ امتد إلى سلطانه إلى ناحية الهند حيث أسس بها حكومة فى أخبى أسس دولة كبيرة فى جنوب غرب آسيا.

ويهمنا فى دراستنا هذه أ، نتحدث بالتفصيل عن فتوحات الغزنويين فى الهند، فقد أنشأ جيشا قويا من الأفغان والترك، ورأى ضرورة الانطلاق بتلك القوة الهائلة إلى ميدان فسيح ولم يكن فى استطاعته الاتجاه نحو بلاد العراق لأن البويهيين كانوا قد وطدوا نفوذهم فيها، كما أن بلاد ما وراء النهر كان القره خاتيون يعملون على بسط سيطرتهم عليها، وانتزاعها من السامانين، لذلك انطلق الغزنويون إلى بلاد الهند من منطقتهم الوعرة كما سنرى.

ومما لا شك فيه أن الرغبة فى الجهاد ورفع راية الإسلام فى غير بلاد الإسلام من أقوى الأسباب التى دفعت الغزنويين إلى القيام بفتوحاتهم، فمن الثابت أن محمود الغزنوى كان مسلما قوى العقيدة تواقا إلى نشر الإسلام.

سار سبكتكين سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م على رأس جيش كبير إلى بلاد الهنادكة، ويحكمها جيبال - راجا البراهمة، وتقع مملكته فى شمال غرب الهند من

الكنج إلى الأفغـان ومن كشـمير إلى الملتـان، وفتح قلاعـا حصيـنة على شواهق الجبال، ومن بينـها مدينة كابل، وعاد إلى بلاده سـالما ظافرا. ولقد كان لاسـتيلاء سبتكتكين على كابل أثر كبير فى إضعاف شأن مملكة جيبال، ذلك أن كابل تسيطر على المسالك المؤدية إلى السـهل الهندى الخصيب ومما هو جدير بالذكـر أن يعقوب بن الليث الصفـار لما مد فتوحه إلى كـابل سنة ٢٥٨هـ / ٨٧١م وجد ة أهل هذه البلاد لا يزالون على الوثنية، فنشر الإسلام بينهم، وتوطد فى عهد سكتكين وابنه محمود كما انتشر فى كافة بلاد الأفغان.

ودهلى وكلنجـر، وأعدوا جندا جـاوز المائة ألف مـقاتل، ولكن سـبكتكين باغتـهم، وشتت شملهم فاضطر الأمـراء المتحالفـون إلى طلب الصلح على أموال كثيرة طائلة عدا الفيلة وعرة آلاف من رءوس الخيل.

أسفرت غزوات سبكتكين لبـلاد الهند عن امتلاكه بعض البلدان والقلاع فى الشمال الغربى من شبه القارة الهندية، وتقع على وجه التحديد بين لمغان وبشاور، مهدت لخلفائـه سبيل فتح المزيد من البلدان الهندية كما أدت انتـصارات سبكتكين على أعدائه إلى ازدياد قوته وهيـبته، فأطاعه الأفـغانية والخليج وأصبحـوا مصدرا هاما يمده بالجند الضرورى لتحقيق سياسته.

سار محمود الغزنوى على سـياسة أبيه التى تنطوى على بسط سيطرة الدولة الغزنوية على بلاد الهند، وسـاعد على ذلك قرب غزنة من بلاد الهند الشـمالية، ووقوعها على قـمة الهضة التى تشرف على سهولـها، ورأى فى بلاد الهند الجهاد الأكبر فغـزاها سبع عشرة غزوة فى مدى فى مـدى سبعة وعشرين عامـا فيما بين عامى (٣٦١ - ٤١٧هـ / ١٠٠٠ - ١٠٢٦م) حـتى خضع له شـمال شبـه القارة الهندية فأتم فتح إقليم كابلـستان، وفتح الملتان وكشميـر، وسعى إلى نشر الإسلام وإحلاله محل البـرهمية فى كل مكان، وأضع البنجاب حـيث استطاع خلفاؤه من بعده أن يثبتوا سلطانهم فى عاصمـتهم لاهور طوال مائة وخمسين سنة واندفع فى فتوحاته إلى ما وراء نهر الكنج ليختتم فتوحه فى الهند باحتلال كجرات.

ولتفصيل ذلك نقول: إن السلطان محمود الغزنوى لما فرغ من إقرار الأمور فى خراسان وسجستان رأى أن يغزو الهند غزوة تكون كفارة لما كان منه من قتال المسلمين، فسار على رأس جيش يتكون من عشرة ألاف مقاتل وعند مدينة.

غير أن جيبال عظم عليه استيلاء المسلمين على أطراف مملكته ورأى أن يشكل خطرا كبيرا على ملكه، إن هو تغاضى عن ذلك فحشد جيشا كبيرا سار على رأسه إلى حدود الدولة الغزنوية عن ذلك ومعه جمع غفير من الجند والمتطوعة بسبب قتال بين الفريقين انتهى بانتصار المسلمين على أعدائهم، وأرسل ملك الهند إلى سبكتكين يعرض عليه الصلح على مال يؤديه وبلاد يسلمها وخمسين فيلا يحملها إليه. لكن محمود بن سبكتكين أقنع أباه برفض الصلح إذ أبى إلا أن يكون فيصل الحرب عنوة وقهرا حمية للإسلام والمسلمين، على أن جيبال عاد إلى طلب الصلح، وهدد بأن الهنادكة لا يهابون الموت إذ طرقهم طارق، فهم سيفقتون أعين أفيالهم ويلقون بأطفالهم فى النار ويخربون بيوتهم بأيديهم، فهم يعرضون أنفسهم على سيوفهم ورماحهم، فيزهقون أرواحهم بأيديهم، فلا يجد المسلمون حين يدخلون ديارهم إلا تلالا خربة عندئذ عدل سبكتكين وابنه محمود عن موقفهما، وتم الصلح بين الفريقين على ألف ألف درهم وخمسين رأسا من الفيلة يؤديها جيبال إلى السلطان الغزنوى ويتنازل له عن عدد من البلدان والقلاع، وسير معه سبكتكين من تسلمها.

غير أن جيبال نقض الصلح، وقبض على المسلمين الذين وفدوا عليه لتنفيذ شروط الصلح، وجعلهم عنده عوضا عن رهائنه الموجودين عند سبكتكين، فلما نمى ذلك إلى علم السلطان الغزنوى لم يقف مكتوف اليدين، بل عول على النفاذ إلى أرض العدو وإعادة إخضاع جيبال. فسار إلى مملكته، وعاش فيها فسادا وتخريبا، وقصد لمغان وهى من أحسن قلاعهم فاستولى عليها وهدم بيوت الأصنام، وأقام فيها شعائر الإسلام، وسار عنها يفتح البلاد، وينكل بمن يعترض طريقه من الهنود، وعاد إلى غزنة فاستعان جيبال على خصمه بأمراء أجمير

والوهن، فارسل خسـر وشاه السلطان الغزنوى إلى شهاب الدين قـائد الغور وفدا يطلب الأمان فأجابه

شهـاب الدين إلى طلبه، ودخل الغـور لاهور، وقبضـوا على خسـروشاه. وبذلك فقدت الدولة الغزنوية آخر معـاقلها، زالت الدولة الغزنوية بذلك فى الهند وغيـر الهند، وامتـد ملك الغور فى أفـغانستـان وبلاد الهند على حـساب الدولة الغزنوية، كما اتسع ملك الغور واستقر سلطانهم الدين بإقامة الخطبة له بالسلطنة، ولقبـه الخليفة غـياث الدين والدنيا، مـعين الإسلام قـسيم أميـر المؤمنين، ولقب السلطان غـياث الدين أخاه شـهاب الدين، عـز الدين. وأكسب اعـتراف الخليـفة العباسى لسلطان الغور الصفة الشـرعية لحكمه على البلاد التى دخلت فى حوزته. وبذلك قوى نفوذ غياث الدين.

لم يكتف الغور بما امتلكوه من بلدان، بل سـعوا إلى توسيع دائرة نفوذهم، فبعدأن استقر أمر لاهور، سار السلطان غياث الدين محمد فى صحبة أخيه شهاب الدين إلى هراة وشدد الغور عليهـا الحصار، وكان يسيطر عليها جـماعة من الترك السلاجـقة يخضعـون للسلطان سنجر، وما زال الغـور يحاصرون هراة ويضيـقون عليها الحصار حتى طلب أهلها الأمـان، فأمنهم غياث الدين محمد، ودخل هراة، وضمها إلى دولته، وتقدم سلطان الغور إلى "بـوشنج" واستولى عليها، ما امتلك بادغيس وبعض البلدان المجاورة لها فى إقليم خراسان.

يتضح لنا مما تقدم أن إمارة الغور الأفغـانية انضمت إلى الدولة الغزنونية فى عـهد السلطان مـحمـود، واعتنق أهـلها الإسـلام، وترقبـوا الفرص للعـودة إلى الاستـقلال ولما ضعـفت الدولة الغزنوية، تمكنوا من الانـفصال عنهـا، بل وتجاوز أراضيهم الجبلـية الوعرة إلى بلاد الغزنوية فى أفغانسـتان وبلاد الهند حتى أدخلوها فى دائرة نفـوذهم وضموا إلـى دولتهم كذلـك أجزاء من إقليم خـراسان وإقليـما هنديا.

الغور وبلاد الهند

يرجع إلى الغور الفضل فى توطيد دعائم الحكم الإسلامى فى شمال الهند، وحقيقة أن السلاطين من بنى سبكتكين هم الذين فتحوا أمام قادة المسلمين من بعدهم سبيل التوسع والفتح فى بلاد الهند، إلا أن سياسة سلاطين بنى سبكتكين تختلف عن سياسة سلاطين الغور فى الهند، فالغوريون لم يعلموا على تثبيت أقدامهم للحصول على المغانم الكثيرة من بلاد الهند، أما الغور فقد استقروا فى البلاد الهندية التى ضموها إلى حوزتهم، ومن ثم احتفظت الهند بمالها وثرواتها واتسع سلطانهم فى بلاد الهند، ورأى الهناركة فى المسلمين خلاصا من نير أمرائهم الذين جرموهم من التدرج فى الوظائف مهما كانت كفاياتهم ومعتقداتهم، بينما يساوى الإسلام بين أبنائه.

وقبل أن نتحدث عن فتوحات الغور فى بلاد الهند يجدر الهند يجدر بنا أن نناقش الدوافع والأسباب التى وجهت أنظار المسلمين الغور إلى بلاد الهند.

لما كانت دولة الغور قد قامت فى أفغناستان فى منطقة جبلية وعرة، واتخذت لها قوى ضاربة قهرت الغزنويين، وانتزعت ممتلكاتهم فى غزنة وما جاورها، فمن الطبيعى أن يعمل الغور على البحث عن ميادين جديدة للتوسع، ومن الطبيعى جدا أن تكون بلاد الهند هى ذلك الميدان، ويؤيد ذلك ما ذكره المؤرخ بانيكار إذ قال: "كلما كانت أفغانستان قوية مدت نفوذها إلى بلاد الهند، والعكس كلما ضعف أمر أفغانستان أمنت الهند من غزوها لأراضيها". ومن السباب التى دعت الغور على الاتجاه إلى بلاد الهند عدم استطاعتهم الزحف إلى وسط آسيا حيث الدولة الخوارزمية ودولة الخطا تقومان فى هذه الجهات، ولا تمكنان الغور من التوغل فى بلادهما.

وكان من الضرورى للغور، ومن المنتظر أيضا أن يولوا وجوهم شطر الهند لأن الغزنويين نقلوا مقر دولتهم إلى لاهور، وأخذوا فى العمل على تقوية أمرهم

لاسترداد البلاد التى انتـزعها الغور منهم فى أفغانسـتان، فكان لابد إذن للغور من القضاء نهائيا على آخر معـاقل الغزنويين فى الهند حتى يأمنوا على دولتهم الناشئة من أية محاولة قد يبذلها الغزنويون لاسترداد أفغانستان منهم.

وهناك أسبـاب أخرى شجـعت الغور على الاتجاه إلى بلاد الهند، فـالأمراء كما سنرى فى الشـمال الهند أضعفـتهم وأنهكت قواهم الانقسامـات والخلافات، وعلى ذلك رأى الغور أنهم لن يواجهوا متاعب كثـيرة فى تحقيق سياستهم فى بلاد الهند. ولا يفوتنا أن نذكـر أن الغور كانوا حديثى عـهد بالإسلام تحدوهم الـرغبة والأول فى الجهاد فى سبيل نشر الإسلام فى غير بلاد الإسلام، وبلاد الهند التى لا يزال معظم سكانهـا على الوثنية خـير ميـدان يجاهد فيـه الغور من أجل رفع راية دينهم ونشره. ولقد انقسم القسم الشمـالى من الهند حينما شرع الغور فى الزحف إليها إلى ممالك متـعددة منقسمة على نفسـها ومستقلة عن بعضـها البعض، فهناك مملكة البنجـاب ويحكمهـا السلطان الغزنـوى "خسروشـاه" - آخر سـلاطين بنى سبكتكين، ومملكة الملتان، وتحكمها أسـرة هندية تسمى سمارس، يضاف إلى ذلك إمارات يحكمـها أمراء هنود الراجـيوتيين فى شـمال الهند من أهمـها مملكة دهلى وآجمير ومملكة قنوج وتضم بنارس، ومملكة جوجورات ونهر البنغال، ويسمى هذا القسم هندوستان ويشمل أخصب بقاع الهند وأكثرها سكانا.

سار الغـور بقيادة الـسلطان غياث الدين مـحمد إلى المـلتان سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م واستولوا عليـها، ثم ضموا بشاور ولم يستطيع بهـيم ديوا راحا نهرواله - وقف زحف الغور مما مكنهم من مـواصلة تقدمهم فى أراض السند حـتى استولوا عليها.

قصـد السلطان الغورى بـعد ذلك لاهور، وتصـدى له السلطان خسـروشاة وأوقع به الهزيمة، فاتحـه سلطان الغور إلى "سيالكوت" وانتزعهـا واتخذها قاعدة لشن الغارات على لاهور، وبعد عدة سنوات استطاع سلطان الغور الاستيلاء على

لاهور، وبسقوط لاهـور فى أيدى الغور، اكتملت سـيطرتهم على إقليم البنجاب بأكمله.

لما أتم السلطان الغورى ضم بلاد السند والبنجاب إلى حـوزته عهد إلى أخيه شهاب الدين بحكم هذه البلاد نيابة عنه فاتخذ من لاهور مركزا له، وعمل شهاب الدين منذ أن ولى أمر هذه البلاد على تثـبيت أقدام الغور فيـها وتوسيع ممتلكاتهم فى الهند.

فظن الأمراء الراجبـوتيون إلى خطر الغور وخشـوا من ازدياد نفوذهم ورأوا فى ذلك خطرا يهدد سلطانهم فتـخالفوا فيما بينهم ونسوا خلافـاتهم وعقدوا العزم على طرد الغور من بلاد الهند قبل أن يهاجموا ديارهم وينتزعوا بلادهم. أو بعبارة أخرى يتـغذوا بالغور قـبل أن يتعيـشوا بهم. وفى سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م حـشد الأمراء الـراجبوتيـون أمراء شـمال الهند أصـحاب دهلاى وآجـمر وقنوج وبـهار والبنغال والكجرات وبندلخـاند، حشدوا قواتهم عند سـر هند على حدود البنجاب الشرقية واستـقروا الهنادكة بالانضمام إليهم فأقـبلوا عليهم من كل حدب وصوب على الصعـب والذلول، فلما علم شهـاب الدين بنوايا الأمراء الراجـيوتيـين نحو وتجمعهم لملاقاته سار إليهم على رأس جيش كبير ودارت معركة عنيفة بين الفريقين انتصر فيها الهنادكة على الغور وقتلوا واسروا من المسلمين كثيرين، وأصيب شهاب الدين بجراح شديـدة وكاد أن يلقى مصرعه لولا أن بعض جنـده حمله إلى خارج ميدان القتال، ودارت المعركة عند (تارين (على مقربة من (ثنيسر).

على أن غياث الدين سلطان الغور لم يتـغاض عن هزيمة جنده فى الهند بل رأى ضرورة محاربة أعدائه وإخـضاعهم، وإعادة نفوذ الغور والغلبة، فـأعد جيشا مكونا من مائة وعشرين ألف مقاتل من الأفغان والترك والخلج والفرس، سار على رأسه شهـاب الدين فى العام التالى، والتقى بأعـدائه فى نفس الموضع الذى نشبت فيه معركة العام السابق، وعلى الرغم من التفوق العددى للهنادكة واستخدام الفيلة فى الحرب إلا أن قـوات الغور أحـرزوا انتصـارا رائعا على الهنـادكة وقتلـوا ألوفا

منهمك من بينهم بعض الأمراء وخر أمير "آجمير" صريعا، وغنم الور مغانم كثيرة.

وكان لهذه الواقعة آثار بعيدة المدى فى شمال بلاد الهند، فقد تقلص نفوذ وسلطان الأمراء الراجيوتيين فى هذه الجهات، ما امتد سلطان الغور إلى بلاد روستى وسمته وكهرام وهنسى وآحمير، وحكم شهاب الدين الأصنام فى هذه البلاد التى امتلكها، وشيد مساجدها يذكر فيها اسم الله، وحطم معابد الشرك كذلك أصبح الطريق مفتوحا أمام الغور للزحف إلى دهلى "وهى كرسى الممالك التى فتحها الغور فى بلاد الهند "وفعلا تمكن الغور من ضم دهلى إلى حوزتهم وبذلك اتسعت أسس الحكم الإسلامى فى هذه البلاد.

عهد شهاب الدين الغورى إلى مملوكه قطب الدين أيبك بحكم البلاد الهندية الداخلة فى دائرة نفوذية نيابة عنه، وعاد إلى غزنة، وجدير بالذكر أن أبيك عرف عنه الحنكة السياسية والكفاءة الحربية.

وجعل من دهلى قاعدة لحكمه فى بلاد الهند بدلا من لاهور التى تبعد عن البلاد الهندية التى يمتلكها الغور. على أن الأمراء الهنادكة لم يلبثوا أن أعدوا عدتهم وتأهبوا لطرد الغور من بلادهم فى بلاد الهند، ووآتتهم الفرصة حين نمى إلى علمهم هودة شهاب الدين إلى غزنة فاتحدوا بقيادة "راجا قنوج جندار" ومملكته تمتد من وراء دهلى حتى حدود بنارس، وفى غضون ذلك وصل شهاب الدين إلى بلاد الهند، وانضم إليه قطب الدين، وسار جيش الغور إلى الأمراء المتخالفين، واشتبك الفريقان فى معركة فى شاندوار، وانتصر فيهل المسلمون على أعدائهم انتصارا رائعا، وزحف الغور إلى بنارس واستولوا عليها وقتل أمير قنوج فى ٥٩٠هـ / ١١٩٤م. ومن أبرز نتائج هذه المعركة ازدياد نفوذ وهيبة الغور فى بلاد الهند وفشل الأمراء الراجيوتيين فى شمال الهند فى استرداد بلادهم التى انتزعها منهم المسلمون لذلك لجئوا إلى صحراء "الراجيوتانا" التى حملت اسمهم (الثأر)

لم يأل قطب الدين أيبك جهدا فى سبيل اوسيع رقعة دولة الغور فى الهند، بل عـمل ضم المـزيد من بلاد الهند إلى حـوزة الـغـور، فـفى ٥٩٣هـ/ ١١٩٦م استـولى أبيك على "جاولار" Gawalior كمـا استولى على نـهر واله. وفى سنة ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م ضم كلنجـار إلى حوزته، ولم تسـتطيع قلعـتهـا الصمـود أمام ضربات المسلمين القوية فـاستلمت حاميتها، يضاف إلى ذلك اسـتيلاء الغور على بعض البلاد فى شمال الهند، وبذلك سيطر الغور على أراضى شمال الهند كلها.

وبينمـا يعمل قطب الدين أبيك عـلى تثبـيت أقدام المسلمـين فى بلاد الهند خرج قـائده محمد بن بخـتيار الخلجى فى قلة من الجنـد يواصل سياسة حكومـته الرامية إلى توسيع إمبراطورية الغور فى الهند، فاستولى على "بندنتبورى" عاصمة إقليم بهـار ويحكمها مـلوك أسرة. "بالا" Pala ولم يلبث إلا أن اسـتولى على مملكة بالا بأسرها. وكانت الديانة البوذية عقيدة السواد الأعظم من سكانها. فحطم معـابدهم وأصنامهم. ونشـر الإسلام بينهم وانضـمت هذه البلاد إلى إمـبراطورية الغور.

وأذن قطب الديـن أيبك - نائب سلـكان الغـور فى الهند - إلى الخـلجى بمواصلة الفتح والتوسع، فتجه محمد بختيار الخلجى إلى " نادية " عاصمة البنغال وعلى الرغم من قلة عدد قواته فقد اقتـحم نادية، ويحكمها لكشمن سنا من أسؤة سنا سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٧م وفر الملك الشيخ من عاصمة دولته بعد أن علم بدخول الغزاة المسلمين لها - فاسـتولى عليها بختيار وضمها إلى مملكـة الغور. وأقام فيها الخطبة لسـاكن الغور، وقد يسـر سقوط نادية فى أيدى الغـور أمر الاستـيلاء على إقليم البنغال بأكمله.

لم يكتف بختـيار الخلجى بما أحرزه مـن انتصارات بل تطلع إلى السـير إلى التبت والاستيلاء عليه ففى سنة ٦٠٣هـ / ١٢٠٦م اتجه من " ديفكوت " Devko إلى " دناجبور " Dinajpur فى عشرة آلاف فـارس. لكن حملته فشـلت فشلا ذريعـا، وفى عودته إلى ديفكوت فـقد مـعظم جيـشه. ولم يلبث هو كـذلك أن

توفى. وقد حرس قطب الدين أيبك على المحافظة على ممتلكات الغور الهندية فقضى على ممتلكات الغور الهندية فقضى على محاولات بعض أمراء الهند فى الاستقلال على مملكة الغور، فقاتلهم أيبك وهزمهم شر هزيمة، وشتت شملهم واسترد نهروا له وعفا عن حاكمها. وإبقاء فى بلدته بعد أن دفع مبلغا كبيرا من المال وتعهد بعدم العودة إلى العصيان.

بدأت متاعب الغور فى بلاد الهند فى القرن السابع الهجرى ذلك أن بعض الولايات الهندية خرجت على حكومة الغور منتهزة فرصة انشغال الغور فى الحروب فى إيران، ومن أبرز الانتفاضات التى أنهكت الغور ثورة الكهكربة وبلادهم قليلة المياه صعبة المسلك وتقع على قمم الجبال، وامتنعوا عن دفع الخراج إلى حكومة الغور وقطعوا الطريق بين غزته ولاهور. ولم يستطع وإلى الملتان التصدى لهم، ولما زاد خطر الكهكرية أرسل شهاب الدين إلى قطب الدين أيبك يأمره بالضرب على أيدى الكهكرية، وإعادتهم إلى الولاء والطاعة، وأرسل أيبك إليهم يدعوهم إلى الطلاعة، وترك التمرد والعصيان، لكن الكهكرية لم يذعنوا لنداء نائب السلطان وبقوا على عصيانهم، وطردوا عمال الغور من بلادهم، وأقبلت الهنود عليهم تؤيدهم فى موقفهم العد ائى من الغور فقوى أمرهم.

لما رأى شهاب الدين عدم استطاعة عماله فى الهند إخضاع الكهكرية وأعوانهم سار بنفسه إلى بلاد الهند لإعادة الأمن والهدوء إليها واشتبكت قوات الغزو مع الكهكرية فى قتال عنيف، هزم أعدائهم، وقتلوا كثيرا منهم، وفر من نجا إلى هناك وأشعلوا نارا وألقوا بأنفسهم فيها قبل أن تأخذهم سيوف المسلمين، وغنم المسلمون منهم ما لا يسمع بمثله، وبذلك عادت إلى الغور هيبتهم فى بلاد الهند وأمنت إمبراطوريتهم فى الهند من حركات التمرد، بل وفد على شهاب الدين بعض رؤساء القبائل الذين انضموا إلى الكهكرية يعلنون ولاءهم وعودتهم إلى الطاعة.

ويجدر بنا أن نناقش أسباب تفوق الغور المسلمين على الهنود، فمن بين هذه الأسباب دقة المسلمين ومهارتهم فى إدارة العمليات الحربية، يضاف إلى ذلك أن بلاد الهند كانت تنقصها وحده سياسية تجمع بينها وتقوى من أمرها إذ كانت الهند دولا مستقلة يحكمها أشخاص لا يرتبطون مع بعضهم البعض برباط يمكن أن يؤدى دورة فى الدفاع عن الوطن فى حالة تعرضه للغزو.

حقيقة أن الأمراء الراجبوتيين كانوا محاربين أكفاء لكنهم لم يخضعوا لأمير يوحد شملهم فى مواجهة العدو المشترك، ولما واجهوا الغور، لم يستطيعوا الصمود كثيرا أمام هجماتهم نظرا لأن الترك كانوا فى مستوى أعلى منهم فى التدريب والتنظيم والتطور الحربى، والهنادكة لم يكن عندهم الاستعداد الكافى لمسايرة أحدث التطورات فى التنظيمات العسكرية والأساليب الحربية، وأخيرا فإن الدين الإسلامى قد أعطى الغور حماسا وقوة للجهاد فى سبيل الله، ولقد وحد بين المسلمين وجمع شملهم روح الأخوة والمساواة التى بثها الإسلام فى قلوب أبنائه. أما الهنادكة فالنظام الطبقى السائد بينهم والذى بمقتضاه، انقسم الناس إلى منبوذين وإشراف عرقل وقوفهم صفا واحدا فى وجه غزاتهم.

والخلاصة أن سلاطين الغور، نجحوا فى إقامة دولة إسلامية فى شمال الهند ومهدت سياستهم فى هذه البلاد إلى قيام إمبراطورية لها تقاليدها ومقوماتها، ذلك أنهم أسندوا إدارة دولتهم فى الهند إلى رجال أكفاء أحسنوا توجيههم، فعملوا على تثبيت الحكم الإسلامى فى هذه البلاد، ولقد حرص خلفاء شهاب الدين - من مماليك الترك - على إتباع التقاليد التى وضعها سيدهم فى حكم الهند لذلك يمكن القول بأن شهاب الدين الغورى ليس للهند فقط، بل يعتبر بحق واضع أساس إمبراطورية المسلمين فى الهند.

ضعف مملكة الغور وانهيارها

سار السلطان غياث الدين محمد فى دولته سيرة حسنة فقد شيد بها المساجد والمدارس، وكان ينسخ المصاحف بخطه، ويودعها فى مكتبات المدارس التى أسسها، وخفف عن الناس عبء الضرائب، ولم يتعرض لمال أحد بسوء، وإذا مات رجل فى غير بلدة، سلم ماله إلى أحد التجار من أهل بلده، فإن لم يجد أحدا يسلمه إلى القاضى، ويختم عليه إلى أن يصل إليه من يأخذه من ورثته وكان يخلع على الفقهاء والأدباء والشعراء، وينفق على الفقراء، يضاف إلى ذلك حرصه على وحدة العقيدة، إذ كان يكره التعصب لمذهب معين، ويقول: التعصب فى المذاهب من الملك قبيح.

كذلك كان شهاب الدين محمد عادلا حسن السيرة فى رعيته وبلغ من اهتمامه بسير العدالة أن القاضى بغزنة يحضر داره فى بعض أيام الأسبوع، ويحضر معه أمير حاجب وأمير دار وصاحب بيت المال، فيحكم القاضى، وموظفو السلطان ينفذون أحكامه على الصغير والكبير والشريف والوضيع، وإن طلب أحد الخصوم الحضور عنده أحضره، واستمع إلى أقواله وأمضى عليه أو له حكم الشرع. لذا سارت الأمور فى مملكة الغور على أحسن نظام، بعد أن ساد العدل البلاد.

على أن دولة الغور اضطربت اضطرابا شديدا بعد وفاة السلطان شهاب الدين محمد، فقد تنافس الأمراء والقواد حول عرش السلطنة، وحدثت حروب انتهكت قوى الدولة الغورية حتى زالت فى النهاية.

فلما توفى شهاب الدين تنافس حول السلطنة غياث الدين محمود نجل السلطان غياث الدين محمد، يساعده تاج الدين يلدز - من أقوى قواد الغور - وابنا بهاء الدين الغورى - صاحب باميان - علاء الدين وجلال الدين، ودخل الأخوان غزنة فعلا وانتزعا قلعتها، وفرقا الأموال على الجند والأعيان، فدانت

لهما غزنة بالولاء والطاعة منتهزين فرصة تغيب غياث الدين محمود فى خراسان، على أن غـزنة لم تصف لعـلاء الدين وجلال الديـن، ذلك أن تاج الدين يلدز لم يلبث أن دخلها ونهب جنده المدينة، واستولى يلدز عـلى القلعة، وأخرج الأميرين الغوريين منها ومن غزنة كذلك، وكان يلدز قد عظم أمره بعد أن استولى على كل ما فى معسكر سيده شهاب الدين من مال وسلاح وجند.

على أن يلدز لم يكن يعمل باسم غياث الدين محـمود كما كان يدعى، بل كان يعمـد إلى انتزاع الحكم لنفسه، فلـما استوثق له أمر غـزنة، لم يأمر الخطيب بالخطبة لغيـاث الدين محمود وإنما يخطب للخليفة، ويتـرجم على شهاب الدين، وفرق الأموال فى الناس، فطابت نفوسهم.

أما غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد فقد تربع على عرش الملك، وخطب لنفسـه بالسلطة، وتلقب بألقاب أبيه غيـاث الدين محمد فى فـيروزكوه، وفرح أهل البلد به، ونكل بأعـدائه ومعارضـيه، وسلك طريقه أبيه فى الإحـسان والعدل، إلا انه لم يسـتطع استرداد بلاد خـراسان التى انتزعـها الخوارزمـيون من مملكته.

على أن أمر يلدز قد سـاء، ذلك أن قطب الدين أيبك - نائب سلطان الغور فى الهند - أرسل إلى يلدز يهـدده بالحـرب، إن لم يعد إلى طاعـة غيـاث الدين محمود، ويقـيم له الخطبة، كما أن أحد قواد يلدز، واسمه " أيدكـز التتر " ساءه موقف يلدز، فخرج على صاحبه، واستولى على غزته وأموالها، وأقام الخطبة فيها لغياث الدين محمود، وأرسل غياث الدين محمود إليه يلقبه " ملك الأمراء " ورد عليه المال الذى كان أخذه من الخزانة، وقال له " أمـا مال الخزانة فقد أعدناه إليك لتخرجه، وأمـا أموال التجار وأهل البلد، فقد أرسلته مع رسـول ليعيده إلى أربابه حتى لا يحـدث ظلم فى دولتنا، وقد عـوضتك عنه ضـعفـه. وأرسل أموال أهل غزته إلى قـاضيها، وأمـره بردها إلى أصحابها، وسـار غياث الدين محـمود إلى

"بست "، واستردها من يلدز وأحسن إلى أهلها، وأعفاهم من خراج سنة لما نالهم من الضر والأذى على أيدى هذا القائد.

أضعفت هذه الانقسامات من شأن دولة الغور، حتى أن السلطان خوارزمشاه، انتزع ما تبقى فى خراسان بل طمع فى الاستيلاء على البقية الباقية من ممتلكات الغور فى أفغانستان، فأمر - أمير ملك - عاملة على مراة بقصد غياث الدين محمود - صاحب الغور وفيروزكوه فسار أمير ملك - القائد الخوارزمى إلى فيروزكوه - عاصمه مملكة الغور - ولما رأى غياث الدين محمود - سلطان الغور - أن لا قبل له بالجند الخوارزمى طلب منه الآمان، فأمنه القائد الخوارزمى، ونزل سلطان الغور غليه من القلعة، ولكن القائد الخوارزمى نكث بالعهد وقبض على السلطان الغورى وقتله، وضم بلاد الغور إلى دولته الخوارزميه سنة ٦٠٥ هـ.

ولم يلبث علاء الدين محمد - السلطان الخوارزمى - أن استولى على كافة أرجاء خراسان، وانتزع " باميان " من الأميرين الغوريين علاء الدين وجلال الدين، واستناب يلدز عنه فى حكم غزنة، فأقام الخطبة له فيها، ونقش اسمه على السكة غير أن خوارزم شاه لم يطمئن إلى يلدز وأعوانه، فسار بنفسه إلى غزته سنة ٦١٢ هـ، وقتل من بها من جند الغور ولا سيما الأتراك، وهرب يلدز إلى لاهور حيث اغتاله بعض رجال شهاب الدين الغورى.

وبذلك زالت الدولة الغورية على أيدى الخوارزميين والهنادكة. ويذكر ابن الأثير أن دولتهم كانت من أحسن الدول سيرة، وأعدلها وأكثرها جهادا.

١ - سلطنة دهلى الإسلامية فى عهد الملوك المماليك

شهد العالم الإسلامى فى تاريخه حكاما من الترك كانوا أرقاء عند سادتهم السلاطين بالجندية، وتدرجوا فى سلكها حتى بلغوا مناصب رئيسية، وقد يحدث فى حالة وفاة السلطان وتركه ذرية ضعافا، أو عدم وجود وارث يخلفه أن يقوم هذا التركى - الذى كان عبدا للسلطان المتوفى - بانتزاع السلطنة لنفسه، فسبكتكين كان مملوكا لألبتكين، ولما توفى سيده دون أن يترك من يرثه مكن سبكتكين لنفسه، وانفرد بحكم دولة سيدة، ووضع أساس إمبراطورية الغزنويين فى جنوب غرب آسيا، وظل أعقابه يتوارثون حكم الدولة الغزنوية حوالى قرنين من الزمان، وعماد الدين زنكى أقام دولة فى الموصل على أنقاض دولة سادته السلاجقة، وقد كان أتابكا لهم. والمماليك فى مصر أقاموا دولتهم بعد أن ضعف ساداتهم سلاطين بنى أيوب. وهذا ما حدث بالنسبة لموضوع بحثنا، إذ أقام المماليك دولة فى الهند بعد أن زالت دولة الغور، وظلت تحكم أربعة وثمانين عامل (١٢٠٦ - ١٢٩٠) ويذكر " لين بول " فى هذا الصدد أن الجندى الكفء من أرقاء الترك كان يستطيع أن يصل إلى أعلى الدرجات وأرفعهما بما فى ذلك منصب السلطنة. أما عامة الناس من الزراع والصناع والتجار، فكانت أوضاعهم محمدة لا تتغير ولا تتبدل، ويتعاقب عليهم الحكام من مختلف الأجناس، ويقفون منهم موقف المتفرج، وما عليهم إلا الطاعة والولاء للحاكم سواء كان إيرانيا أو هنديا راجيوتيا. أو تركيا أو أفغانيا أو مغوليا، ويسيرون حيث تسير بهم الحياة، كيفما أراد حكامهم الذين يبهونهم الحياة أو ينتزعون حقوقهم فيها.

وسلاطين إمبراطورية المماليك فى الهند كانوا أرقاء من أجناس مختلفة، وصلوا إلى ما وصلوا إليه بفضل ما اتصفوا به من أجناس مختلفة، وصلوا إلى ما وصلوا إليه بفضل ما اتصفوا به من شجاعة وبسالة وكفاءة، وكان شأنهم شأن مماليك مصر يحرصون على تخليد أسمائهم بإقامة المنشآت الكبيرة مثل المساجد الفخمة والعمائر الرائعة.

وقطب الدين أيبك - أول سلاطين المماليك فى الهند - كان مملوكا عند سيده شهاب الدين - سلطان دولة الغور الأفغانية - (٥٩٩هـ - ٦٠٢ هـ) وهو تركستانى الأصل، اشتراه قاضى نيسابور، وأدبه وأحسن تأديبه، وعلمه علوم الدين وأساليب الفروسية، ولما توفى هذا القاضى حمله أحد تجار الرقيق على غزنة حيث اشتراه شهاب الدين الغورى، ولمس فيه الشجاعة والذكاء وحسن الخلق، وعهد إليه بالعمل فى الجيش كجندى، وتجلت شجاعته وبراعته الحربية فى معركة تارين سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٥ م، وهى المعركة التى كانت بين السلطان الغور من ناحية، والأمراء الراجيوتيين من ناحية أخرى - وكافأ شهاب الدين مملوكه بأن جعله نائبا له على ممتلكات الغور فى الهند، فأقام فى دهلى وجعلها قاعدة لحكمه فى بلاد الهند بدلا من لاهور.

لم يأل قطب الدين أيبك جهدا فى سبيل المحافظة على دولة الغور فى بلاد الهند بل عمل على ضم المزيد من أراضى الهند إلى دولة الغور، ففى سنة ٥٩٣هـ / ١٢٠٠م استولى أيبك على كواليار ونهروالة، وضم كالنجار إلى حوزته، وكذلك امتلك بلاد " البغال " وأوقف كل محاولة بذلها الهنادكة لتحرير بلادهم من قبضة الغور.

وبقى أيبك على ولائه لدولة الغور حتى فى أشد حالات ضعفها، فلما ولى غياث الدين محمود سلطنة الغور سنة ٦٠٢هـ / ١٢٠٦م لم يكن هناك إجماع على توليته، فخرج عليه بعض مماليكه، وعملوا على الاستئثار بالسلطة والنفوذ دونه، ومن بين هؤلاء المماليك " تاج الدين يلدز " الذى سيطرب على غزنة، وأقام الخطبة فيها لنفسه، وخلع طاعة سلطان الغور، بينما بقى قطب الدين أيبك يدير الممتلكات الإسلامية فى الهند باسم سلطان الغور ويقيم الخطبة باسم غياث الدين محمود، وضبط الأمور فى الهند وضرب بيد من حديد على المفسدين، وعارض بشدة الحركات المناهضة للحكم الغورى، فأرسل إلى ديلذر يقبح فعله، ويأمره بإقامة الخطبة للسلطان الغورى، وهدده بالمسيرة إليه ومحاربته، إن لم يعد إلى

الولاء والطاعة، ولما لم يستجب تاج الدين يلدز قام أيبك بالعمل على ضم غزنة إلى مملكة الغور، وطرد يلدز منها.

على أن يلدز لم يركن إلى الهزيمة بل انتهز فرصة سقوط الدولة الغورية على أيدى الخوارزميين، وسيطر على غزنة وحكمها باسم علاء الدين محمد خوارزم شاه لكنه لم يلبث أن غادر غزنة خوفا من أن يبطش به السلطان الخوارزمى الذى شك فى إخلاصه، وتوجه إلى البنجاب، وانتزعها من نائب قطب الدين أيبك، فسار أيبك إليه، ومازال يطارده حتى غادر الهند. وبذلك أنفرد أيبك بحكم الإقليم الإسلامى فى الهند، وأعلن نفسه سلطانا فى لاهور، وأقيمت الخطبة له فى بلاد الهند الإسلامية، ونقش اسمه على السكة، واتخذ من دهلى قاعدة لدولته.

على أن قطب الدين أيبك لم يلبث أن عفا عن تاج الدين يلدز كما أحسن إلى غيره من مماليك شهاب الدين مثل ألتمش وقباجة وارتبط بهم بعلاقات مصاهرة، فزوج أخته إلى قباجة، وابنته إلى ألتمش، وتزوج من أخت تاج الدين يلدز، وكفل بسياسته هذه ضمان تأييد هؤلاء القادة لحكمه، وعدم التصدى له.

ويعتبر قطب الدين أيبك أول سلطان مسلم استقل بحكم دولة المسلمين فى الهند وتمكن هذا السلطان بفضل قوته وشجاعته وكفاءته الإدارية من بسط سيطرته على شمال الهند على مدى العشرين عاما التى حكمها، وضبط الأمور فى دولته وسايس الهنادكة أحسن سياسة، وضرب بيد من حديد على أيدى اللصوص وقطاع الطرق، وأنفق بسخاء على الفقراء والمساكين، وحكم الناس بالعدل وعم السلام ربوع دولته حتى قيل أن الذئب والحمل كانا يشربان من نبع واحد فى عهده، وساوى فى المعاملة بين الهنادكة عظيمهم وحقيرهم، وهذا أمر لم يعتادوه من قبل.

وعنى قطب الدين بالعمارة، ومن أبرز ما خلف مسجده المشهور الذى بدأ تشييده سنة ١١٩١ م، وأكمله ألتمش سنة ١٢٣٠م وما تزال منارة هذا المسجد باقية إلى يومنا هذا، وتسمى منارة قطب الدين، ويبلغ ارتفاعها ٢٥٠ قدما، وعلى

واجهة أحد أبواب المسجد كتب باللغة العربية بحروف بارزة من الحجر " بسم الله الرحمن الرحيم والله يدعوا إلى دار السلام. . . " ثم كتب تحت ذلك " جرت هذه العمارة بأمر. . . " وبجانب المسجد أسس مدرسة كبيرة. أما المنار فكانت مكونة من سبع طبقات، لكن الموجود منها الآن خمسة فقط أسس أيبك الطبقة الأولى، وأقام ألتمش الطبقتين الثانية والثالثة، وأتم خلفاؤه الباقى، وفى كل طابق نقش على جدرانه آيات قرآنية، وبعض المراسم السلطانية.

توفى قطب الدين أيبك سنة ١٢١٠ م، وخلفه فى الحكم (ابنه آرام شاه) وكان شابا صغيرا لا يستطيع القيام بعبء الملك، لذا عجز عن إدارة على هون الدولة، فاستدعى رجال الدولة ألتمش - وكان يلى حكم أحد الأقاليم الهندية، وذكرنا سابقا أنه كان من مماليك شهاب الدين أيبك - وطلبوا منه أن يلى السلطنة، فقدم إلى دهلى، وطرد آرام شاه منها، وتربع على عرش السلطة سنة ١٢١١ م.

يعتبر شمس الدين ألتمش المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى الهند، وأصله مملوك ابتاعه قطب الدين أيبك من غزنة وحمله معه إلى الهند، ولمس فيه نبل الأخلاق والفضيلة والذكاء والشجاعة، فجعله رئيسا لحرسه، ثم أسند إليه حكم بعض ولايات الهند، وكما كان أيبك لشهاب الدين الغورى، فقد كان ألتمش لأيبك.

بعد أن ولى شمس الدين ألتمش سلطنة دهلى، تعرض لمشاكل داخلية تستهدف التخلص منه، ذلك أن بعض كبار رجال الدولة طمع فى الوصول إلى الحكم منتهزين فرصة الفوضى التى أعقبت وفاة أيبك، فاستولى قباجة على الملتان والسند، وتنازع مع تاج الدين حول السيادة على لاهور، ما أن خلفاء بختيار الخلجى سيطروا على بهار والبنغال. يضاف إلى ذلك أن قواد قطب الدين أيبك لم يرضوا عن تولية ألتمش، وانتهز الأمراء الهنادكة فرصة هذه الاضطرابات والقلاقل، وانشغال السلطان فى قمعها وتحركوا لنيل استقلالهم.

لم يقف شمس الدين ألتمش مكتوف اليدين إزاء موقف قطب الدين أيبك

والتـرك المناهض له ولحكمه، والذين لم يرضـوا أن ينصب عليـهم سلطان هو فى الواقع مملوك لمملوك بل عول على إخضاعهم واشتبك معهم فى معركة بالقرب من دهلى هزمهم فيهـا شر هزيمة، وأجبرهم على الدخول فى طاعـته وكان من أقوى الرجال الذين تصدوا لحكم ألتمش تاج الدين يلدز سيطر على غزنة بعد انهيار دولة الغـور وبسط نفوذه علـى البلاد المجـاورة لغزنة حـتى أقـترب من خـوارزم وشن حـملات ناجـحـة على أطراف الهند. وعلى الرغم من أنه أقـام الخطبـة للسلطان الخوارزمى فى غزنة، إلا أن السلطان لم يطمئن إلى ولاء يلدز له، وسار إلى غزنة سنة ٦١٣هـ / ١٢١٧م لانتزاعها من يلدز، وطرد الأتراك منها، فولى يلدز الأدبار إلى بلاد الهند، والتقى بناصر الدين قبـاجة - والى لاهور والملتان وديبل، وغيرها من قبل ألتمش - فى مـعركة عنيفة هزم فـيها قباجـة، واستولى على لاهور، ثم زحف إلى مدينة دهلى لانتزاعها من ألتمش فتصدى له السلطان الهندى فى معركة عنيفة على الطريق إلى دهلى، وهزمه وقتله فى نارين سنة ١٢١٦ م.

لم يكد يستقر الأمر لألتمش حـتى تعرض لخطر جديد من قبل المغول الذين بدءوا يشنون حملاتـهم العنيفة على الدولة الخوارزميـة، واستولوا على أقاليـمها، وألحقوا ببلدانها الخراب والدمار، ولما توفـى السلطان الخوارزمى علاء الدين محمد خلفه ابنه جلال الدين منكبرتى، وعـول على استرداد ملك آبائه وأجداده من براثن المغول المعتـدين، فصار إلى خوارزم، لكنـه علم أن المغول قد استولـوا عليها. . . لذلك اتجه إلى خـراسان، وتنقل بين بعض مدنها. ولم يلبث أن غـادرها حتى لا يصطدم بالقوات المغـولية المرابطة فى خراسان فى وقت لم يكن هو فـيه على أهبة الاستعـداد لمهاجمة عدوه، فولى وجـهه شطر غزنة - وكان يحكمهـا من قبل أبيه قبل أن يحـتلها المغول - ورحب أهل غـزنة بمقدمه ورأوا فـيه خيـر منقذ لهم من ويلات المغول وغيرهم، والتفوا حوله، ولما سـمع الجند الخوارزمى المبعثر بين كابل وبشاور وغـيرها من المدن الواقعة على حـدود الهند بمقدمة، سارعـوا إليه ودخلوا تحت لوائه، وبذلك كثر جمعه، وأصبح جيشه يضم ستين ألفا من المشاه، وسبعين

ألفا من الخيالة، وواتته الفرصة للعمل على تحقيق هدفه الرامى إلى استعادة دولة أبيه التى انتزعها المغول، فسار على رأس جيشه إلى السهول المحيطة ببروان Par-wan فى الشمال الشرقى من غزنة، واشتبك مع المغول فى قتال استمر ثلاثة أيام، أحرز فيه على أعدائه انتصارا رائعا، وقتل المسلمون من المغول كثيرين وشجع انتصار جلال الدين، البلاد الإسلامية على الوقوف فى وجه المغول، فثار أهل هراة على والى المغول وقتلوه وأعلنوا ولاءهم لجلال الدين منكبرتى.

لما علم جنكيز خان بانتصارات السلطان الخوارزمى على جنده. وانضمام البلدان الإسلامية إليه، أعد جيشا كبيرا للقضاء على جلال الدين منكبرتى وجنده، وسار على رأس جيشه إلى كابل. والتقى جند المغول بالجيش الخوارزمى فى معركة ضاربة، دارت فيها الدائرة على المغول للمرة الثانية، وغنم المسلمون ما معهم، وفكوا أسر الأسرى، لكن الأمور ما لبثت أن تحولت إلى صالح المغول رغم هزيمتهم، ذلك أن خلافا حدث بين بعض قادة جلال الدين منكبرتى، فارق على أثره القائد التركى بغراق جيش السلطان الخوارزمى واتجه إلى الهند، وتبعه من الجند ثلاثون ألفا كل يريدونه، وحاول منكبرتى أن يثنيه عن عزمه، وألح عليه، بل بكى بين يديه، وخوفه من الله إذا تقاعس عن الجهاد فى سبيله، لكن هذه المحاولة لم تجد مع القائد التركى فتيلا، فقد أصر على الانسحاب الأمر الذى أضعف الجيش الخوارزمى، وأصبح عاجزا عن الوقوف فى وجه المغول.

كل ذلك حدث بينما جنكيز خان يتجه بجحافة إلى الناحية التى يعسكر فيها جلال الدين وجنده، لذلك لم ير السلطان الخوارزمى بدأ من الانسحاب والمسير إلى الهند، ولما بلغ السند، لم يجد من السفن ما يكفى لعبوره هو وقواته. وفى غضون ذلك أدركه جيش المغول ودار قتال عنيف بين الفريقين أبلى فيه المسلمون بلاء حسنا، فلما رأى المسلمون عدم استطاعتهم قتال المغول لقلة عددهم، ونقصان عتادهم، دبروا أمر العبور إلى الهند، بينما عاد المغول إلى غزنة وامتلكوها، وأبدى جلال الدين من ضروب الشجاعة والبسالة مالا مزيد عليه فى العبور حتى أنه بلغ الشاطئ الشرقى ومعه أربعة آلاف جندى كانوا حفاة عراة.

على أن جلال الدين منكبرتى لم يجد استجابة وقبولا من دولة المماليك فى الهند فقد توجس ألتمش ورجال دولته خيفة من الخوارزميين. لذلك اصطدم جلال الدين بجد ألتمش فى السنوات الثلاث التى قضاها فى الهند، وبدأ هذا الصدام مع قباجة - حاكم السند الذى حاول منعه من الإقامة فى السند خوفا من أن يتعقبه المغول، ويطيحون به وبولايته، لكن جلال الدين أوقع به الهزيمة، وأحبط محاولته، ولما علم جلال الدين أن المغول يعتزمون القدوم على الهند لدحره والقضاء عليه سار إلى دهلى، وأرسل إلى ألتمش يطلب منه أن يمنحه هو وجنده حق الإقامة فى دهلى، لكن السلطان المملوكى اعتذر إليه بحجة أن حرارة الجو فى دهلى لا تناسب الخوارزميين، ذلك أن سلطان دهلى خشى أن ينضم الجند الترك فى دولته إلى سلطان الخوارزميين. وطلب منه الانسحاب من دولته، وحدثت معركة بين الجيش الخوارزمى وجيش ألتمش بالقرب من دلهى، وانسحب على أثرها جلال الدين إلى لاهور، وكثر جمع جلال الدين بما وفد إليه من جند أخيه غياث الدين - حاكم العراق - كذلك انضمت إليه قبائل الكهكوية الناقمين على قباحة - حاكم السند - فازدادت قوته، وانتزع من والى السند بعض البلدان.

لم يكن جلال الدين يهدف من التجائه إلى الهند اتخاذها مستقرا ومقاما، لكنه كان يهدف إلى تجنب الاشتباك مع المغول حتى يستعيد قوته، ثم يستأنف الحرب ضدهم. وواته الفرصة لشن الحرب من جديد على المغول، فقد توفى جنكيز خان، وعقب وفاته انسحاب القوات المغولية الرئيسية التى تحتل أقاليم الدولة الخوارزمية إلى مواطنها الأصلية فعبر نهر السند سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م وقصد إيران وظل يقاتل المغول حتى ضعفت ووهنت قوته وفر من أمامهم، وظلوا يتعقبونه حتى قتل فى كردستان سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١ م.

لما غادر جلال الدين منكبرتى الهند أمن السلطان ألمتش على دولته من الخطر الخوارزمى، وما قد يسفر عنه من هجوم المغول على بلاده، لكنه لم يكد يتنفس الصعداء من جراء هذه الأزمة حتى واجه أمورا داخلية تمس وحدة دولته ومن أبرز

هذه الأمور خـروج غياث الدين الخـلجى - والى البنغال من قبلـه - عليه وأعلن استـقلاله عن دهـلى، وأقام الخطبـة باسمـه، ونقش اسمـه على السكه، وتلقب بألقاب الملوك، وقوى أمره حتى امتد نفوذه على جاينكر وكمروب وترهوت وجور إلى الشرق من دهلى.

عون السلطان ألتـمش على سحق محـاولة الخلجى الاستقلاليـة عن دولته، وسار على رأس جيش قـوى إلى البنغال، ولما رأى الأمير الخلجى عدم اسـتطاعته الوقوف فى وجـه سلطان دهلى أعلن عودته إلى الولاء والطاعة له، وتعـهد بدفع الجزية المقررة عليه، إلا أنه لم يكن صادقا فـى تعهده، بل كان يزعم انتظار فرصة أخرى تتـيح له العودة إلى الاسـتقـلال بولايته، فلمـا ابتعد السلطان ألـتمش عن البنغال، عاد وأعلـن الاستقلال وسار إلى بهـار واستولى عليها، غـير أنه لم يهنأ بهذا الاسـتقـلال طويلا، إذ سار إليـه " ناصر مـحمـد شاه " - وإلى " أوده " Oudh من قـبل أبيه السـلطان ألتمش وهاجـم البنغال، وأوقع الهـزيمـة بالخلجى وأنصاره، وأعاد سيطرة دهلى على إقليم البنغال.

على أن الأمور لم تستتب فى إمبراطورية الهند الإسـلامية بعد عودة البنغال إلى سيطرة الحكومـة المركزية فى دهلى، ذلك أن قائدا آخـر انتقض على السلطان دهلى، وهو ناصر الدين قـباجة، وكان ألتمش قـد طرده من لاهور بعد أن حاول الاستـقلال بها على دهلى، فـبسط سيطرته على بعض بـلدان السند، لكن جلال الدين منكبـرتى اشتـبك مـعه، وانتـزع منه أوكا والملـتان، ولما انسـحب السلطان الخوارزمى من الهند عـاد قباجـة وسيطر على هذه البلاد، وحكمـها مستـقلا عن سلطان دهلى، فسار إليه شمس الدين ألتمش، بينما اتجه وإليه على لاهور لنجدته وهزمه بالقرب من بهكر Bhakkar، وظل يتبعه، حـتى سقط فى نهر السند وغرق وهو يحاول عبوره فرارا من خصمه. بشـاور التقى بجيش جيبال البذى يتكون من أثنى عشر ألفا من المشاة معها ثلاثـمائة من الفيلة فنشب القتال بين الفريقين، هزم الهنود وقتل منهم كثـيرون، وأسر جيبـال ومعه جماعة من أهله وعـشيرته، وغنم

المسلمون مغـانم كثيرة، واستولوا على عـدد من البلدان. ولما وضعت هذه الحرب أوزارها، وحطت على الظهور أثقـالها، وافق السلطان محمـود على إطلاق سراح جيبال بعد أن افتدى نفسه بمال كثير وعدد كبير من فيلة الحرب، ولم يستطع الأمير الهندوكى بعد أن أطلق سراحه أن يبقى على قيـد الحياة بعد أن لحقه الذل والعار، فألقى بنفسه فى النار فاحترق فى شوال سنة ٣٩٢هـ / ١٠٠١ م.

ثم سار السلطان محمود نحو الهند وانتـصر على أهلها ثم قصد الملتان وهو مركز مشـهور للحجاج الهنود، وقد وصف الأصطخرى صنم البـراهمة فى الملتان فقـال: إن أهل الهند يعظمون هذا الصنم ويحـجون إليه من أقـاصى بلدان الهند، ويتقـربون إلى الصنم فى كل سنة بمال عظيم ينفق على بلد الصنم والمتـعلقين به، وصورته على خلقة الإنسان متـربع على كرسة من جص وآجر، والصنم قد ألبس جميع بدنه جلدا، لا يتبين من جثته إلا عيناه، فمنهم من يزعم أن جسده خشب، ومنهم من يـزعم أنه من غـيـر الخـشب إلا أنه لا يتـرك بدنه ينـكشف، وعـيناه جوهرتان، وعلى رأسه إكليل ذهب، متربـع على ذلك الكرسى، قد جعل ذراعية على ركبتيه، وقد قبض أصابع كل يديه كأنما يحسب أربعة.

لما قصد السلطان محمود الملتان، غزا " بهاطية " - جنوب بلاد البنجاب - وصاحبها يسـمى " بحيزا " - وهى مدينة حصينة عاليـة السور، يحيط بها خندق عظيم فامتنع صاحـبها بها، ولما شدد المسلمون عليه الحصـار، وأرك ضعفه ووهنه أمام القـوات الغزنوية أخذ جـماعة ثـقاته واعتـصم بالجبال المجـاورة، فسيـر إليه السلطان الغزنوى فـرقة من جيـشه باغتـته على غرة وأنزلت به الهـزيمة، ودخلت بهاطـبة فى حوزة مـحمـود بن سبـتكتين، وأقام بـها حتى أصلح أمـورها ورتب قواعدها، ودعـا أهلها إلى الإسلام واستخلص بها مـن يعلم من أسلم من أهلتها تعاليم الدين الحنيف.

وفى العام التالى قصد السلطان محمود مـدينة الملتان نفسها وانتصر وهو فى طريقه إليـها على أنديال بن جيبـال الذى رفض مرور القوات الإسلامـية من بلاده ووصلت القوات الغزنوية الملتان واستولت عليها ولاذ صاحبها بالفرار.

اتجه السلطان محمود بعد ذلك إلى قلعة كواكير فاستولى عليها وأحرق أصنامها. وأعتصم وتحصن صاحبها فى قلعة منيعة فحاصره السلطان الغزنوى، وضيق عليه الحصار وما لبث أن صالحه وعاد إلى خراسان لإنقاذها من غارات الترك وعهد إلى نواسه شاه حفيد جيبال الذى أعتنق الإسلام ودخل فى طاعة السلطان الغزنوى بأن ينوب عنه فى حكم بلاد الهند الغزنوية، لكن نواسه ضاه لم يكن مخلصا لغزنة، وانتهز فرصة ابتعاد محمود بن سبكتكين عن بلاد الهند، وارتد عن الإسلام، ومالأ أهل الكفر والطغيان، فلما علم محمود بذلك أسرع إلى بلاد الهند، ففر نواسه شاه من بين يديه، واستعاد السلطان محمود تلك الولاية، وأعادها إلى الإسلام، واستخلف عليها رجلا من ثقاته.

لما رأى أمراء الهند انتصارات السلطان محمود الغزنوى فلا بلادهم وتهديده لاستقلالهم عقدوا العزم على الاتحاد والوقوف يدا واحدة أمام الخطر الغزنوى الزاحف على بلادهم، لذلك حشدوا جيوشهم بأرض البنجاب فى حماس بالغ، واشتبكوا مع القوات الغزنوية بقيادة السلطان محمود الذى حمل عليهم حملة لم يستطيعوا الصمود إزاءها، ففر أمراؤهم، ولم يستطع جنودهم الثبات أمام ضربات الغزنويين القوية، فلاذ من نجا بالفرار، واستولى السلطان محمود على عتاد وذخائر وكنوز الجيوش الهندية، ولم يكتف بذلك، بل أرسل بعض قواته فى أثر فلول العدو المهزومة فلحقت بإبرهمن بال أنديال فى قلعة بهيم - وهى جبل عال - وكان الهنود جعلوها مخزنا لصنمهم الأعظم، ينقلون إليها أنواع الذخائر، ونفيس الجواهر منذ سنين طوال، تقربا إلى هذا الصنم، فحاصر القلعة الجند الغزنوى، وضيقوا على من بها الحصار حتى وهنوا واستسلموا وفتحوا باب الحصن، وملك المسلمون القلعة، وحصلوا منها من نفيس الجواهر ما لا يحد ومن الدراهم تسعين ألف ألف درهم، ومن الأوانى الذهبية والفضية العلية الكثير، وكان ذلك سنة ٣٩٨هـ / ١٠٠٧ م.

وفى سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م قام السلطان محمود بغزوة أخرى إلى بلاد الهند فهاجم تارين، واستولى عليها، وحكم أصنامها، ولما رأى صاحب تارين عدم استطاعته الوقوف فى وجه السلطان محمود عرض عليه الدخول فى طاعته وإرسال عدد من الفيلة ومال عظيم وألف رجل من عسكره إليه كل عام. فأجابه السلطان محمود إلى طلبه " وتتابعت القوافل بين ديار خراسان وبلاد الهند فى ضمان الأمان وجوار الحيطة والإحسان ".

بلغت فتوحات السلطان محمود فى بلاد حدا لم تبلغه رايات الإسلام المنصورة قبلا، ودخل فى دين الله أفواج عديدة من أهل الهند، ومع ذلك لم يتوقف السلطان محمود الغزنوى عن سياسته فى مواصلة ضم المزيد من البلاد الهندية فسار على رأس جيش كبير على ناردين، فسقط فى يد صاحبها، لذلك أوى هو وجنده إلى جبل عال صعب المرتقى ضيق المسلك، لعله من بأس الجند الغزنوى وكتب إلى قومه يدعوهم إلى الوقوف إلى جانبه، فكثر جمعه، وعظمت قوته ودخل مع المسلمين فى معركة دارت فيها الدائرة عليه، وقتل من جنده كثير، وغنم المسلمون أموالهم ودوابهم، وفتح المسلمون ناردين فتحا طرزوا به شعائر الإسلام، ووجدوا فى بيت كبير صنما قيل: أنه بنى منذ أربعين ألف سنة دمره السلطان محمود.

حرص السلطان محمود على الوقوف فى وجه أمراء البلدان الهندية الذى يحاولون النيل من سلطانه فيها، ففى سنة ٤٠٥هـ / ١٠١٤م سار السلطان محمود إلى " ثانير " لإخضاع صاحبها الذى تمادى فى الفكر والطغيان والعناد للمسلمين، فلقى فى طريقة أودية وعرة المسالك وقفارا فسيحة قليلة الماء قاسى جنده فى قطعها مشقة بالغة وحمل الجند الغزنوى على أهل ثانير جملة أدت إلى هزيمتهم، وغنم المسلمون ما معهم من أموال وفيلة، وعادوا إلى غزنة ظافرين. وترتب على هذا الانتصار أن دان للمسلمين إقليم البنجاب وأصبح الطريق إلى سهول الهند ممهدا أمامهم.

كان من أثر الانتصارات الرائعة التى أحـرزها السلطان محمود فى بلاد الهند والغنائم التى حصل عليـها جيشه المظفـر، أن كان جنده كثيرا مـا يتركون وراءهم أوانى الفضة لثـقلها أكفاء بما كـانوا يحملون من ذهب كثيـر وجواهر. والمعرف أن أوانى المعابد الهندية، وأكـثر الآنية التى تزخر بها دور الأغنيـاء لم تكن فى الغالب إلا من الذهب الخالص، لذلك قدم على السلطان محمود من المتوعة عشرون ألف مقاتل من بلاد ما وراء النهـر وغيرها من البلاد، فقوى بهم، واعتزم غـزو كشمير المجاورة لمتلكاته الهندية، ولما بلغ بقواته بلاد الهند خشى أمراؤها باسمه، فأرسلوا رسلا إليه يبذلون الطاعـة والولاء له، ولما بلغ مشارف كشمير أتاه صـاحبها وأسلم على يديه، وواصل السلطان الغـزنوى زحفه، وفى طريقه اسـتولى على الولايات الفسيحة والحـصون المنيعة حتى بلغ حصن " هودب " فاستـسلم صاحبه للسلطان محـمود، ودخل هو وقـومه فى الإسلام، وسـار عنه السلطان الغزنوى إلـى قلعة "كلجند "، والطريق إليها غياض ملتفة لا يمكن اجتيازها إلا بشق الأنفس، وكان صاحبها كما يقول العتبى من أعيان الهند وشياطينهم، فسير جيشه إلى أطراف تلك الغيـاض كى يمنع المسلمين من اجـتيازها، ولكن الجـيش الغزنوى أحبط مـحاولة النيل منه، وقـد ألحق بالعدوة خـسارة فـادحة، وعـمد " كليـجند " إلى زوجـته فقتلها، ثم قتل نفسه بعدها، وغنم المسلمون أمواله وملكوا حصونه، وسار محمود إلى بيت الأصنام المشهورة بهذه البلاد به خمـسة أصنام من الذهب الأحمر مرصعة بالجواهر وفيها من الذهب ستمائة ألف وتسعون ألفا وثلاثمائة مثقال فأخذ السلطان الغزنوى كل ذلك وأحرق الباقى.

لم يكتف السلطان محـمود بما حقـقه من انتصارات، إنما واصل سـيره إلى قنوج، فغـادرها راجيـال - صاحبـها - فاسـتولى عليهـا محـمود وعلى قلاعـها وأعمالها، ثم سار إلى قلعة البراهمة، ودار قتال بين الغزنويين وبين أهلها، دارت فيـه الدائرة على الهنود، ولم ينج منهم إلا الشريد، ثم اتجـه إلى قلعة " آسى "، ولما لم يستطـع " جندبال " مواجهـة القوات الغزنوية، لاذ بـالفرار، وعلى ذلك

امتلك محمود الغزنوى حصنه، ثم صار إلى قلعة " شروة "، ولم يستطع صاحبها أيضا الثبات أمام القوات الغزنوية، وقتل أكثر جنده، وغنم المسلمون ما معه من أموال وخيل، وعاد محمود بن سبكتكين إلى غزنة ظافرا، وأنفق ما حصل عليه من هذه الغزوة من مال وفير فى تشييد مسجد كبير فى غزنة.

على أن ملوك الهند لم يستسلموا لما لحقهم من هزيمة، وسقوط بلادهم لبلدة تلو الأخرى فى أيدى الغزنويين، بل عولوا على التخلص من نفوذ وسيطرة غزنة، وقد تزعم هذه الحركة الاستقلالية " بيدا " ملك كجوراهة - والتف حوله ملوك الهند، غير أن راجيال فاجأ حلفاءه وخرج عليهم، وعاد إلى الولاء للدولة الغزنوية فباغته ملك كجوراهة وقتله، فازدادت قوته ورأى فيه ملوك الهند خيرمن يقودهم فى معركة تحرير بلادهم من سيطرة الغزنويين، لكن السلطان محمود ابن سبكتكين لم يقف مكتوف اليدين إزاء هذا الخطر الداهم الذى يهدد دولته فى الهند، بل سار سنة ٤٠٩هـ / ١٠١٨م على رأس جيش كبير إلى بلاد الهند، عبر نهر الكنج، والتقى بالقوات المتحالفة. لقد كان لظهور السلطان محمود فى الميدان أثر كبير على أعدائه، فأخذهم الهلع والفزع، ولم تعن عنهم كثرتهم شيئا، إذ انقضت عليهم القوات الغزنوية، وألحقوا بهم الهزيمة، ولما رأى ملوك الهند عدم جدوى التصدى للسلطان الغزنوى، وأرسلوا رسلهم إليه، يبذلون الطاعة والإتاوة، تقل منهم محمود الصلح، وسار فى أثر بيدا، والتقى به فى موقعه كبيرة نصر الله فيها المسلمين على أعدائهم، وغنموا أموالهم وسلاحهم واقتفوا فلول المنهزمين، بواغتوهم فى الغياض والآجام، وأكثروا فيهم القتل والأسر.

تتابعت غزوات وانتصارات السلطان محمود فى بلاد الهند، واتسعت أملاك الدولة الغزنوية فى هذه البلاد، وعظمت هيته فى نفوس أهلها، وتوقفوا عن مقاومة النفوذ الغزنوى، على أن معظم غزوات السلطان محمود حدثت سنة ٤١٦هـ / ١٠٢٥م إذ فتح عدة حصون ومدن واستولى على الصنم المعروف بسومنات، وهو أعظم أصنامهم يحجون إليه كل ليلة خسوف، ويعتقد الهنود أن

الأرواح إذا فارقت الأحياء اجتمعت فيه، فينعليها فيمن يشاء، وكانوا يحملون إليه نفائس الجواهر، ويعطون سدنته المال الوفير، وله وقف يزيد على عشرة آلاف قرية، يفد إليه البراهمة لعبادته، وإقامة الحفلات الدينية على بابه، ويعتقد الهنود أن السلطان محمود فى غزواته كلما حطم صنما، يعتقدون أن سومنات غير راض عنهم ولو أنه راض لأهلك من قصده بسوء، ويعتقدون أن هذا الصنم يحيى ويميت، وأنه إذا شاء أبرأ من جميع العلل، ومن لم يصادف من أهل الهند انتعاشا احتج بالذنب وقال: إنه لم يخلص له الطاعة، ولم يستحق منه الإجابة، ولا يوجد فى بلاد الهند على تباعد أقطارها وتفاوت أديانها ملك ولا سوقة إلا قدم لهذا الصنم ما عز عليه من أموال وذخائر.

لم يهاجم محمود الغزنوى سومنات لتدمير أو الاستيلاء على ما فيه من أموال كما يدعى بعض المؤرخين، ولكن لأن سومنات كان أخطر مراكز المقاومة والعدوان الهندوكى فى وجه الزحف الإسلامى، ومهما يكن من أمر فلقد سار السلطان محمود على رأس جيش كبير سنة ٤١٦هـ / ١٠٢٥م فاقتحم صحراء جرداء قاحلة متوامية الأطراف هى صحراء " الثأر " - أكبر صحروات الهند - فلما اجتاز هذه الصحراء، رأى طرفها حصونا مشحونة بالرجال ففتحها ودمر أصنامها، وحصل منها على الماء والميرة اللازمتين لرجاله، وسار إلى " أنهلوارة " ففر صاحبها منها، واحتمى بحصن له، فاستولى محمود على المدينة وسار إلى سومنات ودمر فى طريقة عددا من الحصون فيها كثير من الأوثان فيما يبدو - حجابا ونقباء لسومنات - حسب اعتقاد الهنود - فقاتل من بها، وفتحها، وحطم أصنامها وسار إلى سومنات، وقضى على كل مقاومة اعترضت طريق الوصول إليه، ولما بلغ حصن سومنات قاتل من به، وأسرعوا إلى صنمهم سومنات ليقاتلوا عنه، وفعلا قاتلوا على بابه بعنف وضراوة، وتضرع الهنود إلى صنمهم لعله ينصرهم، وحمل الجند الغزنوبى عليهم حملة أخذت الكثير منهم، وحطم السلطان محمود الصنم سومنات وأحرق بعضه، وأخذ بعضه إلى غزنة، وجعله عبته مسد غزنة الجامع.

غير أن بعض ملوك الهند قد أغضبهم ما حاق بمعبودهم الأكبر فأعدوا العدة لمقاومة السلطان محمود، فخرج صاحب " أنهلوارة " وقصد قلعة " كنزهة " - قرب سومنات - ولما نمى إلى علمه أن السلطان محمود قصده، فر على بلاده، ما قصد السلطان الغزنوى المنصورة وكان صاحبها قد ارتد عن الإسلام، وأعد العدة لمحاربة السلطان محمود - فسار السلطان الغزنوى إلى المنصورة، واشتبك مع صاحبها وهزمه، وأخضعه لنفوذه، ثم سار على بهاطبة، فأطاعه أهلها ودانوا له بالولاء، وعاد إلى غزنة سنة ٤١٧هـ / م.

أعجب محمود بجمال إقليم " جوجرات "، وارتاح إلى مناخه، حتى أنه فكر فى الإقامة فيه، واستخلاف ابنه مسعود على غزنة لولا اعتراض قادته، ومهما يكن من أمر فإنه يمكن اعتبار محمود الغزنوى سلطانا هنديا خالصا، فتح إقليم البنجاب، ونشر الإسلام فى ربوع الهند، وفتح طريقا سلكه بعده كثيرون. وقنع خلفاؤه بعد أن فقدوا أملاكهم فى فارس وأفغانستان بالاستقرار فى إقليم البنجاب ولم تكن غاية محمود من غزواته فى بلاد الهند جمع الأموال - كما يدعى بعض المؤرخين - حقيقة أن محمود غنم الكثير من غنم الكثير من غزواته، لكن هدفه كان أولا وقبل كل عليه نشر الإسلام، وتحطيم الأصنام، بديل أنه رفض ما عرضه عليه الهنادكه من افتداء صنم السومنات بالأموال الطائلة، وقال: إنه يؤثر أن يصفه من يأتى بعده بأنه محطم الأصنام على أن يقولوا عنه بأنه بائع أوثان وعلى ذلك يمكن القول بكل ثقة بأن محمود الغزنوبى كان غازيا مجاهدا، أخذ على عاتقه نشر الإسلام وبلغ فى فتوحه " إلى حيث لم تبلغه فى الإسلام رأيه، ولم تقل به قط سورة ولا آية، فدحض عنها أجناس الشرك وبنى بها مساجد وجوامع، وأقام بدلا من بيوت الأصنام مساجد الإسلام، ومن مشاهد البهتان معاهد التوحيد والإيمان ".

واصل مسعود بن محمود الغزنوى سياسة أبيه فى المحافظة على أملاك الدولة الغزنوية فى بلاد الهند، ضم المزيد من الأراضى الهندية إلى الدولة

الغزنوية، وأقر أحمد بن ينالتكين على بلاد الهند الغزنوية، وقد قام هذا الوالى بالاستيلاء على " منارس " من ولاية الكنج التى لم تبلغها جيوش الإسلام قبلا.

قوى شأن أحمد بن بنالتكين فى بلاد الهند، وحدثته نفسه بالخروج على الدولة الغزنوية، لكن السلطان مسعود تصدى له وتخلص منه.

وعلى الرغم من أن السلاجقة كانوا يشكلون خطرا جسيما على الدولة الغزونية فى فى عهد السلطان مسعود إلا أن هذا السلطان لم يتقاعس عن مواصلة الفتوح فى بلاد الهند ولم يستمع إلى تحذير رجال دولته بالبقاء فى غزنة حتى يكون قريبا من السلاجقة، فسار إلى بلاد الهند سنة ٤٢٩هـ - ١٠٣٧م لتحقيق حلمه القديم وهو الاستيلاء على قلعة " هانس " وكانت تسمى " بالقلعة العذراء "، لأن أحدا لم يستطع فتحها من قبل. واستولى على هذا الحصن الهندوكى الكبير ثم زحف إلى " منارس " عند الشمال الغربى من دهلى، ففر أهلها إلى الغابات المجاورة مما يسر للسلطان مسعود أمر الاستيلاء على هذه البلاد.

على أن جهود السلطان مسعود فى بلاد الهند يسرت للسلاجقة تحقيق أطماعهم فى إقليم خراسان، واستولوا على بعض بلدان خراسان، وتطور الأمر فى الدولة الغزونية إلى أسوا من ذلك، فقد هزم السلاجقة السلطان مسعود فى داندانقان سنة ٤٣٢هـ - ١٠٤٠ م.

ولما رأى السلطان الغزنوى ضعف قوته، قرر الرحيل إلى الهند حتى يجمع الجموع ويعود إلى غزو السلاجقة، واسترداد خراسان، لكنه قتل فى الطريق إلى الهند، فخلفه ابنه مودود، وسار على سياسة أبيه فى المحافظه على أملاك الدولة الغزنوية فى الهند، فتصدى لأخيه مجدود إلى ولى إقليم البنجاب منذ عهد أبيه، وكان من أثر ثورة مجدود أن تشجع بعض أمراء الهنادكة وتحالفوا، وأعلنوا الاستقلال عن الدولة الغزنوية، وزحفوا لاهور، لكن الجند الغزنوى ردهم على أعقابهم، وعادت إلى المسلمين هيبتهم فى شمال شبه القارة الهندية.

ولما ولى السلطان إبراهيم بن مسعود الحكم. أعاد إلى الدولة الغزنوية هيبتها ونظم أمورها، وأقر الأمور فى هندوستان، ولما توفى امتد النفوذ السلجوقى إلى الدولة الغزنوية، فواتت الفرصة الأمراء الهنود لمحاولة الانفصال عن الدولة الغزنوية لكن السلطان بهرام شاة أدحص محاولتهم، وقضى على الفتن التى حدثت فى البنجاب والملتان، ورد عصبة الأمراء الهنادكة عن لاهور، وكانت الآمال قد بعثت فى نفوسهم من جديد لطرد الغزاة من بلادهم، وهكذا استطاع بهرام شاة أن يحافظ على النفوذ الغزنوى فى بلاد الهند، ويثبت أقدام الدولة الغزنوية فيها.

ولما ضعفت الدولة الغزنوية لجأ سلاطينها إلى ولايتهم فى بلاد الهند للاعتصام بها أو الاستغاثة بأهلها لرد الغزاة الطامعين فى غزنة - حاضرة ملكهم - فلما ولى السلطنة " خسرو شاه " لجأ إلى الهند على أثر اقتحام قبائل النركمان لحاضره دولته، كما انتهز الغور فرصة الفوضى التى عمت الدولة الغزنوية المتداعية، فانقضوا على غزنة وأعملوا فيها الخراب والدمار. وقضى آخر ملوك الدولة الغزنوية أيامه الباقية فى لاهور وتفاقم خطر الغور، واشتد ساعدهم فاستعاد زعيمهم غزنة من التركمان، وظلوا يطاردون السلطان الغزنوى فى بلاد الهند حتى قبضوا عليه، وبذلك انتهت الدولة الغزنوية التى يرجع إليها الفضل فى توطيد أقدام المسلمين فى أرض الهند، ونشر الإسلام فى تلك الديار.

والواقع أن حملات الغزنويين فى بلاد الهند واتخاذهم لاهور مقرا لهم يعتبر بدء حكم المسلمين الحقيقى فى هذه البلاد، ذلك أن ملوك الغور الذين ورثوا الدولة الغزنوية تولوا سلطنة دهلى، ونشروا نقود المسلمين فى أرجاء بلاد الهند الشمالية قاطبة.

نتائج الفتوحات الغزونية فى بلاد الهند

لاشك أن الإسلام انتشر بين الهنود نتيجة غزوات سلاطين بنى سبكتكين ودخل الهنود فى الإسلام عن طوع واختيار. وحقيقة ساهم التجار المسلمون بدور كبير قبل أن يعمل الغزنويين فى بلاد الهند على نشر الإسلام، وبنو مساجد فى بعض مدن الهند، كما أن حكومة الملتان الإسلامية كان لها السيادة فى بلاد السند منذ الفتح العربى فى عهد بنى أمية، وكان لها نصيب فى نشر الإسلام فى هذه البلاد. ولكن ينبغى أن نؤكد أن السلاطين الغزنويين وخصوصا محمود بن سبكتكين كان لهم تأثير كبير على الهنادكة حتى أن جموعا غفيرة منهم أقبلوا على الهنادكة حتى أن جموعا غفيرة منهم أقبلوا على اعتناق الإسلام.

انتشر الإسلام فى بلاد الهند نتيجة لانتصارات راياته فيها ففى سنه ٤١٠هـ أحرز السلطان محمود انتصارات رائعة على " هرداتا " - أحد الملوك الهند - فوافق على اعتناق الإسلام. وتقدم إلى السلطان الغزنوى مع عشره آلاف رجل، وأعلنوا رغبتهم فى التحول إلى الإسلام، ونبذ عباده الأصنام، ومما لا شك فيه أن بعض الهنود تركوا عباده الأوثان واعتنقوا الإسلام تقربا لحكامهم الجدد.

ولقى الإسلام ترحيبا كبيرا من الطوائف الفقيرة الذين كان حكامهم الآريون ينبذونهم ويحتكرونهم وينقصون من شأنهم، فأعلى الإسلام - دين المساواة - منزلتهم ورفع من شأنهم.

كذلك انتشر الإسلام بين الهنود عن طريق الفقهاء والوعاظ ودروسهم والعلماء والمنصوفة ورحلاتهم، ومن أبرز وأشهر هؤلاء الشيخ إسماعيل وكان من أهل بخارى، وعرف بثقافته الدينية والدنيوية. وقدم إلى لاهور سنة ٣٩٦هـ - ١٠٠٥م وظل يدعو الناس إلى الإسلام ويعلمهم شرائعه، وقد وفد عليه كثير من أهل الهند للاستماع إلى مواعظه، وسرعان ما هدى الله الكثير من الناس إلى الإسلام على يديه.

ولما كان الغزنويين سنيين متشـددين، فقد اعتنق الهنود الإسلام على المذهب السنى، وحذوا حذو غزاتهم فى تعصبهم وتزمتهم. وكذلك عرف أهل الهند اللغة الفارسية عن الغزنويين، والمعروف أن هذه اللغة نمت وازدهرت فى بلاط سبكتكين فى غزنه، كـذلك وجد المتصـوفون من الفرس والـترك فى بلاد الهند خيـر موئل يلجئـون إليه من بلادهم المضطربة، ولقيت الصـوفية ترحيـبا من أهل الهند الذين يميلون إليها بطبيعـتهم. كذلك اثر الترك فى الهنود، والهنود فى الترك، وأخذ كل منهما عن الأخـر، إذا نقل الترك إلى الهند الثقافـة الفارسية ومظاهر الحيـاة الركية والفارسية، وبهذا انتشرت فى المجتمع الإسلامى بالهند اللغة الفارسية - لغة الثقافة فى ذلك العصر - واللغـة الأوردية التى هيا خليط من الهندية والعربية والفـارسية والتركيـة، ولم تنتشر اللغة وبالتـالى لم تزدهر الثقافة العـربية بالهند ازدهارها فى الأقاليم والدول الإسلامـية الأخرى، وساعد على هذا أن بعض الشـيوخ والعلماء الذين وفدوا على الهند وكانوا من علماء ما وراء النهر، وهؤلاء كانوا أتباع مذهب أبى حنيفة يعتمدون على كتب فقهاء هذا المذهب، كما كانوا شغوفين بعلوم اليونان القديمة والثقافـة الفارسية، وبهذا اصطبغت الثقافة الإسلامـية بالهند بهذه الصفات الثلاث، ولم تقم على أسـاس قوى من الثقافـة العربية، ونشـأ فريق من المولدين يمثل حضارة إسلامـية، مزيجا من الحضارات التركيـة والفارسية والهندية، وينعم بالتسامح الإسلامى، ينبذ التفرقة التى كانت من أبرز خصائص المجتمع الهندى من قبل، وظهر مفكرون يهاجمون الديانة البرهـمية، واحتم الهنادكة عقائد المسلمين، كما أن المسلمين استفادوا من فلسفة الهند، وتقدم علمائهم فى علم الفلك.

ولقد تأثرت الحياة الاجـتماعية بالترك، وتجلى ذلك فى انتـشار الحجاب بين النساء، وتخلص المنبوذون من قيود النظام الطبقى وساهموا بحرية فى ميادين الحياة المختلفـة من سياسيـة واقتصادية، واقـتبس الهنود على المسلمين أنظمـتهم الإدارية والمالية والقضـائية، وشهد الأدب الفارسى ازدهـارا زاد منه رحيل أدباء فارس إلى الهند، وأصبحت الفارسية لغة التأليف والكتابة للمسلمين وغير المسلمين، واستفاد

المسلمون من السنسكريتية، وترجموا عنها إلى الفارسية كما ترجموا إليها، وفى ميدان الفن استفاد المسلمون من الهنود والهنود من المسلمين، وتجلى ذلك فى المساجد والعابد.

تجمعت عوامل متعددة أدت على ضعف الدولة الغزنوية وانهيارها فى أخر الأمر، ومن أبرز هذه العوامل المحاولات المتكررة التى بذلها ولاة الأقاليم فى الدولة الغزنوية للاستقلال بالولايات التى يحكمونها، ولم تكن هذه الركات الانفصالية هى عوامل ضعف الدولة الغزنوية فقط، بل أن أمراء أل سبكتكين أيضا قاموا بدور كبير فى تدهور شأن بيتهم العريق، فقد حارب بعضهم بعضا حول الوصول إلى السيادة والحكم، وحاول بعضهم الاستقلال ببعض أقاليم الدولة الغزنوية بل استعان بعضهم على بعض بأعداء دولتهم المتربصين للنيل منها.

ومن أكبر العوامل التى عجلت بانهيار الدولة الغزنوية ظهور الأتراك السلاجقة وارتفاع شأنهم وسعيهم إلى توسيع ممتلكاتهم على حساب الدولة الغزناويه، كمان أن الغور خرجوا من عزلتهم الجبلية، وعملو ا على مد نفوذهم فى ما وراء حصونهم، وكان خير ميدان لتنفيذ سياستهم بلدان الدولة الغزنوية التى أخذت عوامل الضعف والانحلال تنال منها حتى أنهكت قوامها، ولم تعد تستطيع مقاومه أعدائها الأشداء.

واصل الغور سياساتهم التوسعية على حساب الدولة الغزنوية المتداعية حتى استولوا على غزنه، وسقطت لاهور أخر معاقل الغزنوين سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م فى أيدى الغور وبسقوطها زالت الدولة الغزنوية وانتهت أيامها.

٢ - الغوريون

تقع بلاد الغور فى أفغانستان الحإلية بين هراة وغزنة، وقامت دولة مستقلة فى هذه المنطقة تتخذ من فيروزكوه عاصمة لها، وكان الغور لا يدينون بالإسلام حتى غزاهم السلطان الغزنوى محمود بن سبكتكين سنة ٤٠١هـ / ١٠١٠ م.

شكل الغور خطرا جسيما على الدولة الغزنوية فى عهد السلطان محمود بن سبكتكين، ذلك أنهم دأبوا على شن الغارات على رعايا هذا السلطان، واتخذوا من وعورة بلادهم وصعوبة مسالكها معصما يقيهم بأسه لما كثرت غارات الغور على بلدان الدولة الغزنوية أنف السلطان محمود أن يكون مثل أولئك المفسدين جيرانه، وهم على هذا الحال من الكفر والفسوق والعصيان، وعول على إخضاعهم، وأعد جيشا كبيرا سار على رأسه إلى بلاد الغور سنة ٤٠١هـ / ١٠١٠م والتقى بجحافلهم فى معركة عنيفة، ومزقهم فيها كل ممزق، وأغلق الطرق المؤدية إلى بلادهم، بينما سار الجيش الغزنوى داخل بلاد الغور، وألتقى بأميرهم فى مدينة " أهنكران "، وحدث اشتباك عنيف بين الفريقين تفوق فيه جند الغور، لذلك أمر محمود بن سبكتكين جنده أن يولوا الأدبار على سبيل الاستدراك، وأنسحب الجند الغزنوى، فظن الغور أن ذلك هزيمة، وساروا فى أثر جيش السلطان محمود حتى ابتعدوا عن بلادهم، فواتت الفرصة الجند الغزنوى للانقضاض على الغور، وفعلا باغتوهم، ووضعوا السيوف فيهم، وقتلوا كثيرا منهم، وشتتوا شملهم، ووقع أمير الغور أسيرا فى أيدى الغزنويين، وأمتلك السلطان محمود قلاع الغور وحصونهم. ومن ثم دخلت بلاد الغور فى حوزة سلطان غزنة..

ولما كان الغور حتى ذلك الحين على غير دين الإسلام، فقد حرص محمود بن سبكتكين على نشر الإسلام، بينهم فاستخلف عليهم الفقهاء يعلمونهم الدين وشرائعه.

رفض أمير الغور أن يقع أسيرا فى أيدى غريمه، لذلك أثر الانتحار، وأبقى السلطان محمود حكم الغور فى أيدى بيتهم الحاكم، ولكن فى ظل السيادة الغزناوية، وارتفع شأن أمراء الغور فى الدولة الغزناوية حتى أنهم ارتبطوا بصلة النسب ببيت سبكتكين، لكنهم رغم ذلك تطلعوا، لكنهم رغم ذلك تطلعوا إلى الاستقلال عن غزنة، وأخذوا يتحينون الفرص المناسبة لتحقيق سياستهم، وفعلا تطورت الأمور فى صالحهم، ذلك أن الدولة الغزنوية انشغلت فى دفع خطر السلاجقة الزاحفين على إقليم خراسان فأعد الغور عدتهم للاستقلال، وتحقيق أطماعهم التوسعية على حساب الدولة الغزنوية، ولما أنهك السلاجقة قوى سلطان غزنة، واستولوا على الكثير من ممتلكاته، سار محمد بن الحسين - أمير الغور - إلى غزنة بغية الاستيلاء عليها سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م لكن السلطان الغزنوى بهرام شاه أحبط محاولته وهزم نده، وقبض عليه وقتله.

استنكر الغور قتل السلطان الغزنوى لأميرهم، وعولوا على الانتقام من بهرام شاه، وأعد سورى بن الحسين - أمير الغور الجديد - العدة لذلك، فقوى من أمر جنده، وسار على رأسهم إلى غزنة بقصد الاستيلاء عليها، والأخذ بثأر أخيه، ولما أقترب سورى من غزنة بجحافلة، رأى بهرام شاه أنه لا يستطيع التصدى للغور الأقوياء، فقادر حاضره دولته، وذهب إلى الهند الغزنوية ليجمع منها جيشا قويا، ويعود إلى غزنة لتحريرها من قبضة الغور.

أما الغور بقيادة سورى، فقد استولوا على غزنة، لكن جند غزنة وأهلها ساءهم احتلال الغور لمدينتهم، وانتزاعهم الحكم من بيت سبكتكين، وظلوا يتحينون الفرص للتخلص من الغور، وواتتهم الفرصة حينما عاد السلطان بهرام شاه إلى غزنة على رأس جيش كبير لاسترداد حاضرة ملكه من الغاصبين، ووقف جند غزنة وأهلها إلى جانب بهرام شاه فى الاشتباك الذى حدث بينه وبين أمير الغور الذى اغتصب أعز قطعة من مملكته، وقد انتهى القتال بهزيمة سورى، وقبض بهرام شاه عليه وقتله وولى جنده الأدبار إلى بلادهم لا يلوون على شىء

وعاد بهـرام شاه إلى حـاضرة ملكه ظافـرا منتصـرا سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م وأبهج أهلها بمقدمة، وبقهر الغزاة الطامعين.

لما قتل سـورى خلفه عـلاء الدين الحسـين بن الحسين فى حكـم الغور ولم يتغـاض عن قتل أخيـه سورى وهزيمة جنده، وطردهم من غـزنة، بل عول على الانتقام من السلطـان الغزنوى وأهل غزنة لتنكيلهم بجند الغور وأمـيرهم سورى، فسار على رأس جيش كـبير إلى غزنة، واستولى عليـها، وولى السلطان الغزنوى بهرام شاه هاربا على بعض المجاورة ليستجـمع قوته، ويعود إلى حاضر دولته. أما علاء الدين الحسين بن الحسين، فقـد أقر الأمور فى غزنة، وعاد إلى بلاده بعد أن استخلف على غزنة أخاه سيف الدين، وأمره بإقامة الخطبة له فى هذه المدينة، كما طلب منه أن يسير فى الناس سيرة حسنة، ويحكم بالعدل. وفعلا نفذ سيف الدين تعليمـات أخيه، فـأحسن إلى أهل غزنة وأجـزل على أعيانهـا الصلات النفسـية، وخلع عليهم خلعا سنية حتى تطيب نفوسهم ويخلصوا للعهد الجديد.

على أن هذه السـياسـة لم تؤت ثمارها، إذ كـان أهل غزنة مـا يزالون على ولائهم وإخلاصهم ما يزالون على ولائهم وإخلاصـهم لبيت سبكتين، ويعارضون حكم ما يزالون على ولائهم وإخـلاصهم لبيت سبكتين، ويعـارضون حكم الغور لهم، وأعدوا العـدة للتخلص منهم، فلما كان شـتاء سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢ وانقطع الطريق بينغـزنة وبلاد الغـور بعـد أن غطاه الثلج، أمـن أهل غزنة عـدم وصـول النجدات العـسكرية من بلاد الغور إلى بلدهم، ونادوا بشعار بهـرام شاه، وأرسلوا إليه يطلـبون منه العودة إلى حـاضرة ملكه، وتحـريرهم من نير الغور المـغتصـبين للحكم من أصحابه الشـرعيين، فاستجاب بهـرام شاه لنداء أهل غزنة، وسار على رأس جيش كبيـر إلى غزنة، ولما اقترب منها قـبض أهل غزنة على سيف الدين - الحاكم الغـورى - ومهدوا لبـهرام شاه أمر دخـول غزنة، فدخلهـا ونكل بالغور، وبذلك استرد بهـرام شاه غزنة للمرة الثانيـة. على أن بهرام شاه لم يلبث أن توفى وولى بعده ابنه خسروشاه وكان علاء الدين الحـسين بن الحسين - أمير الغور - قد

أعد العدة للسير إلى غزنة واستعادتها والانتقام من أهلها الذين قتلوا رجاله، فلما علم خسروشاه بزحف أمير الغور على غزنة أسقط فى يده وخاف العاقبة وغادر غزنة وقصد لاهور واستقر بها ونقل إليها حكومته وجعلها لدولته بدلا من غزنة. أما أمير الغور فقد استرد غزنة سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م ولم ينس هذا الأمير موقف أهل غزنة العدائى من قومه فألحق بهم ويلاته، وأباحها لجنده ثلاثة أيام كاملة لقى خلالها أهلها سوء العذاب، ولم يكتف بذلك بل دمر حاضره بنى سبكتين بما فى ذلك المنشآت التى أنشأها سلاطين غزنة العظام حتى سماه أهل غزنة »محرق العالم« على أنه أصلح أمور غزنة بعد أن أسرف فى الانتقام من أهلها ورأب الصدع، ونقل الكثير من أهل غزنة ممن يخشى بأسهم إلى بلاده وأسكنهم بعض قلاعها، وبذلك كفل بسياسته هذه أضعاف مقاومة سكان غزتة لحكم الغور وبقاءها فى حوزته.

قويت دولة الغور فى عهد أميرها علاء الدين الحسين بن الحسين وتطلع إلى توسيع رقعة دولته فسار على رأس جيش كبير إلى خراسان وعاث جنده فسادا وتخريبا فى أعمال هراة - وسار إلى بلخ وحاصرها وضيق عليها الحصار حتى استسلمت له وضمها إلى حوزته، على أنه لم يحظ بحكمها طويلا فقد سار إليه السلطان السلجقى «سنجر» ليستعيد بلخ من الغور ويمنعهم من التعرض لخراسان والتقى السلطان السلجوقى بالأمير الغورى فى قتال عنيف هزم فيه الغور ووقع أميرهم أسيرا فى أيدى السلاجقة، على أن السلطان «سنجر» لم يلبث أن عفا عنه وخلع عليه وأعاده إلى «فيروزكوه».

وأصل أمير الغور سياسته الرامية إلى ضم مزيد من البلاد إلى دولته على الرغم من الهزيمة التى لحقت به، ونظم إدارة دولته واستعمل العمال والأمراء على البلاد، وكان ابنا أخيه وهما غياث الدين محمد بن سام وشهاب الدين محمد فيمن استعمل على بلد من بلاد الغور اسمه «سنجه». فما الناس إليهما وانتشر ذكرهما فسعى بهما من يحسدهما إلى عمهما علاء الدين وقال إنهما يريدان

الوثوب بك وقتلك والاستيلاء على الملـك، فأرسل عمهما يستدعيهـما إليه وأوقعا به الهزيمة، عندئذ جاهرا بعصـيان عمهما وقطعا خطبته فتـوجه إليهما علاء الدين وحدث اشتباك بين الفريقين انهزم فـيه علاء الدين ووقع أسيرا فى أيدى ابنى أخيه عقد صلح بين الأميـر الغورى والأخوين بمقتضاه تزوج غـياث الدين من ابنة عمه علاء الدين وجعله ولى عهده.

لما توفى علاء الدين الحسين بن الحـسين سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م خلفه غياث الدين محمد، وأقـيمت الخطبة له فى غزنة، لكن الغور لم يلبثـوا أن فقدوا غزنة، ذلك أن الغز طمعوا فيها بعد مـوت علاء الدين الحسين، واستولوا عليها، وطردوا الغور منها، وبقيت غـزنة فى أيديهم خمس عشرة سنة ساموا خـلالها أهلها سوء العذاب كعادتهم فى كل بلد ملكوه.

وفى تلك الفترة كان غياث الدين محمد - أمير الغور - يعد العدة، ويجمع الجيوش لاسترداد غزنة من مغتصبيها الغز.

سار غياث الدين إلى غزنة فى صحبة أخيه شهاب الدين، واشتبك الغور مع الغز فى مـعركة ألحـقوا بهم الهزيمـة، وطردهم من غزنة، واستـردوها، وأحسن غياث الدين أهلها.

لم يكتف غياث الديـن محمد أميـر الغور - بامتلاك غزنة، بل عـقد العزم على امتلاك البقية الباقية من الدولة الغزنوية لتوسيع دولته الناشئة، واستئصال شأفة آل سبكتين حتى يضمن لدولتـه - التى قامت على أنقاض الدولة الغزنوية - الأمن والاستقرار، فأرسل جـيشا استولى على بلدان الغزنيين غيـر الهندية، وضمها إلى دولته. ثم عـبر شهاب الدين الغـورى نهر السند معـتزما الاستـيلاء على ممتلكات الغزنويـين فى الهند واتجه إلى لاهور - قـاعدة آخر سـلاطين سبكتكـتين - وفى طريقه إليها استولى على ممتلكات الغزنويين الهندية ثم حاصر لاهور - آخر معاقل الغزنويين - فى جميع عظيم وحشد كبير. حاصرها وضيق عليها الحصار، وأرسل شـهاب الدين إلى خـسروشـاه وأهل لاهور يعـرض عليهـا الأمـان على أنفسـهم

وأهليهم وأموالهم على أن ييسروا أمر استيلائه على لاهور، وحذرهم عاقبة التعرض لقواته، لكن خسروشاه أهل لاهور أصورا على مقاومة الغور، وبذلوا فى سبيل ذلك الأنفس والأموال، غير أن مقاومتهم للغور اعتراها الضعف.

وبذلك قضى السلطان أتلمش على حصومه منافسيه، واكتسب حكمة الصفة الشرعية حينما أرسل إليه الخليفة العباسى المستنصر بالله تقليدًا بحكم دولة الإسلام فى الهند سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م، ولقبه بـ«ناصر أمير المؤمنين، حامى الإيمان» وقدم السلطان الخليفة فى الخطبة والسكة على نفسه، وأبرز كذلك الألقاب التى منحها له الخليفة على العملة الفضية العريضة التى سكها، ومما لاشك فيه أن اعتراف الخليفة بسلطان دهلى أكسبه موحبة وتقديرًا واحترام رعاياه المسلمين.

وكان لتأييد الخليفة للسلطان ألتمش أثر كبير فى تقوية دولته فخرج يقضى على ما تبقى من خصومه، ولم يكن هؤلاء الخصوم قادة من الترك، بل كانوا بعض راجات الهند الذين انتهزوا فرصة انشغال السلطان بمشاكلة الداخلية، واستطاعوا الاستقلال ببلدانهم، فسار إليهم ألتمش وساعاد »رانثمار« وكذلك استراد ماندوار Maddawor فى جبال السوالك. وفى سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣١ هاجم جواليار Guwalior وحاصر قلعتها شهرا حتى سيطر عليها، ثم سار إلى ملاوى واستردها كذلك، واستولى عليها Bhlsa وآجان Ajjan وعاد إلى الاشتباك مع الخلجيين الذى حاولوا من جديد الاستقلال بالبنغال وتقوية نفوذهم فيها وخصوصا بعد وفاة ناصر الدين محمد شاه - وإلى البنغال من قبل أبيه سلطان دهلى.

توفى ألتمش سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م بعد أن وطد نفوذه وسلطان دولة المماليك فى الهند، وخاض فى سبيل ذلك حروبا كثيرة - كما ذكرنا - ضد خصومه الذين حاولوا انتزاع بعض بلدان دولته، ولذلك يمكن القول بأن ألتمش هو المؤسس الحقيقى لسلطنة دهلى المملوكية.

ولم تمنع الغزوات المتكرره التى خاضها ألتمش ضد أعدائه من إصلاح أحوال بلاده، فأعاد تنظيم الجهاز الإدارة، وهو من هذه الزاوية يعتبر رجل دولة

من الطراز الأول، وقد كـان الجهاز الإدارى من قـبله ينقصه التـنظيم. وحدد لكل إدارة أو مصلحة اخـتصاصهـا، ورسم لها الخطة التى تسير عليـها. وبذلك سارت الأعمال الحكومية فى عهده بدقة. كذلك حرص السلطان ألتمش على إقرار العدالة فى بلاده، ورفع الظلم عن رعـاياه وباشر بنفـسه أمـر إقرار العـدل ودفع الظلم. لتحقيق ذلك أمـر كل صاحب مظلمة بلبس ثوب مصبوغ، يمـيزه عن لباس الهند الأبيض، فكان مـتى جلس للناس أو ركب، ورأى أحـدا ارتدى ثوبا مصـبوغـا، استدعاء إليـه، ونظر فى شكواه ورفع عنه مظلمته، لكى يتيح الفـرصة لأصحاب المظالم برفع شكاواهم إليه، وأثناء وجـوده فى داخل قصره، أقام علـى باب قصره تماثيل لأسدين موضوعـين على برجين ـ وفى أعناقهما سسلتان من الحـديد فيهما جرس كبير، يدقه المتظلم، وحينئـذ يسمح السلطان بمثوله بين يديه، ويستمع عليه وينظر فى أمره.

وعنى ألتمش بـتشجـيع العلوم والآداب وأنفق أموالا كثـيرة فى كـتابة نسخ كثيـرة من القرآن الكريم حتى تكون فى مـتناول الناس لقراءتها والاستـفادة منها، وأسس العديد من المدارس وزين بلاطه بالشعراء والعلماء، وجـعل عاصمته مركزا هاما للعلوم والأداب، كذلك أولى الفن المعمارى عناية كبيرة فأتم بناء مسجد قطب الدين فى دهلى، وشيد مسجدا آخر فى آجمير.

بوفاة ألتـمش يكون قد بقى من عمر سلطنـة المماليك فى دهلى ثلاثون سنة أثقلت المشاكل كاهلهـا فى خلالها حتى عصفت فى النهـاية بذلك الصرح الضخم الذى بدل ألتمش جهودا كـبيرة فى سبيل تشييـده. ومن الأمور التى أضعفت هذه الدولة عجـز السلاطين الذين خلفـوا ألتمش عن إدارة شئـون الدولة، والمنازعات الشديدة التى قامت بين كبار رجال الدولة حول الاستئثار بالسلطة.

وتفضيل ذلك أن ألتمش عهد إلى ابنته رضيه بالحكم من بعده، ذلك أن ابنه الأكبر ناصر الدين محمد توفى فى البنغال، وحاول ألتمش تدريب ابنته على إدارة شئـون الدولة، وعهد إليهـا بمباشرة سلطانه أثـناء غيابه عن دهلى تمهـيدًا لتوليتـها

السلطنة من بعده. على أن كبار رجال الدولة اعترضوا على تولية رضية الحكم بعد وفاة والدها، ودبروا خلعها، واستدعوا آخاها فيروز من لاهور، وطلبوا منه أن يتولى سلطنة دهلى بدلا من أخيه، فسار فيروز إلى دهلى، ومكنه رجال الدولة من تولى الحكم بعد أن عزلوا أخته رضية. على أن هذه السلطان الجديد لم يستطع إدارة أمور الدولة بحكمة وكفاءة، بل انصرف إلى اللهو والعبث، وترك مقاليد الأمور فى يد أمه شاه تركان، وهى امرأة حقود وضيعة النشأة، وسارت سيرة سيئة فى الحكم، لذلك حدثت فى الدولة الكثير من القلاقل والثورات والفتن، وعول حكام الملتان ولاهور وهانسى وبدون Budaun وأورده على إنهاء هذا الحكم الفاسد وتحركوا إلى دهلى فعلا. ففر فيروز من دهلى، وتبعه جنده، والتقى بالخارجين عليه بالقرب من العاصمة، لأنه لم يستطع الاشتباك معهم فى قتال، ذلك أن جنده انفضوا من حوله، وعادوا إلى دهلى، وأعلنوا خلع فيروز، وتولية رضية، وقبض على فيروز وزج به فى السجن.

على أن هذا الحل لم يرض أمراء الولايات المتجهين إلى دهلى إذ كانوا يعتزمون تولية أحد الأمراء الحكم، وحاصروا دهلى فعلا وقطعوا عنها سبل الاتصال بالولايات التابعة لها، لكن السلطانة رضية أظهرت مقدرة وكفاءة فى سحق هؤلاء المناوئين. فعلى الرغم من أنها كانت فى قلة من الجند، فإنها استطاعت إضعاف أعدائها وهزيمتهم، وردهم على أعقابهم خاسرين، وأصبحت سلطانة الإمبراطورية بلا منازع، وعاد الأمن والهدوء إلى ربوع دولتها.

وحرصت رضية على أن تبلغ مبلغ الرجال فى أعمالها وتصرفاتها، حتى تضفى على نفسها الرهبة أمام الناس، فتزيت بزى الرجال، وفادت الجيوش بنفسها ضد أعدائها، وشهدها الناس وهى تركب الفيل على رأس جيشها، إلا أنها أغضبت أمراء الدولة الترك الذين رفع ألتمش من شأنهم، وقربهم إليه، وأسند إليهم الأمور الهامة فى الدولة، وأبعدتهم عن التدخل فى شئون الحكم، لأنها كانت تدرك مقدار معارضتهم لحكمها، وسوء نواياهم نحوها.

كذلك أثارت رضية المعارضة ضدها حينما رفعت من شأن رجل حبشى يعمل أميرا للخليل فى بلاطها يسمى جلال الدين ياقوت، وأسندت إليه قيادة الجيش، بل همت به، وتزوجت منه، فدبر الأمراء الترك مؤامرة للتخلص منها، أو على الأقل تقليص نفوذها، وقادها أيتيكين Aitigin - أمير حاجب - لكن رضية أحبطت المؤامرة، ولم تنته متاعب رضية عند هذا الحد، إذ أعلن حاكم البنجاب الثورة، فسحقت رديه تدمره. أما اختيار الدين ألتونيا Altunia - حاكم بهاتندا - فقد رفع هو الآخر راية العصيان، وبينما هى بعيدة عن العاصمة، إذا بالأمراء الترك فى دهلى يعلنون عزلها، ويولون منها «معز الدين بهرام بن ألتمش».

لما ولى »بهرام شاه« سلطنة دهلى لم يستطع الانفراد بالحكم بل اضطر على الخضوع للأمراء الترك، والسير وفق أهوائهم وأسند أمر الملك كله إلى واحد منهم هو وزيره اختيار الدين أيتيكين الذى قبض على زمام الأمور فى الدولة دون السلطان ولم يلبث أن غضب السلطان من وزيره الذى جعله اسما فقط فدبر السلطان مؤامرة لاغتياله، وأدى نجاحها إلى استرداد سلطانه.

لكن بهرام شاه لم يستمتع بالانفراد بالحكم طويلا، ذلك أن «بدر الدين سنقر» - أمير حاجب - سيطر على أمور الدولة، كذلك تعرض السلطان لمؤامرة أخرى تستهدف خلعه، فقد انتهز ألتونيا - حاكم بهاتندا - فرصة مقتل أيتكين، وعول على المسير إلى دهلى، والتربع على عرش السلطنة، ولتحقيق ذلك أفرج عن أسيرته - رضية - وتزوج منها، ورأى أن ذلك يعطيه الحق فى تحقيق أطماعه الرامية إلى الاستحواذ على السلطنة، وتقدم الاثنان إلى دهلى، لكن القبائل الكهكرية هاجمت جيوش ألتونيا وشتت شملهم، وعثروا على رضية تستظل بظل شجرة فاغتالوها. وبذلك فشلت هذه المؤامرة على أن رضية كانت سلطانة عادلة على جانب كبير من الكفاءة والمقدرة، شجعت العلوم والآداب، وكانت تتجول فى الأسواق فى زى الرجال، وتجلس إلى الناس، وتستمع إلى شكواهم، ومما يجدر ذكره أن رضية عاصرت شجرة الدر - ملكة فرنسا - عن مصر فى الحملة الصليبية

السابعة، وكان زوجها الملك الصالح أيوب قد توفى أثناء معركة المنصورة، فقبضت شجـرة الدر على زمام الأمور فى مصـر حتى قدم توران شـاه بن الملك الصالح، وخلف أباه فى الملك.

لم تستتب الأمـور فى دهلى بإحباط كؤامرة أمير بهـاتندا، ورضية، ذلك أن أمير حـاجب ظل قابضا على زمام الأمور فى الدولة وبينمـا تسير الدولة فى طريق الاضطراب واجـهت خطرًا آخـر ليس من الـداخل، ولكن من الخـارج، ذلك هو خطر المغول الذين هاجموا لاهور سنة ١٢٤١م، فقاد أمير حاجب جيشا إلى لاهور لوقف تقـدم المغول، غـير أنه لم يلبث أن توجس خـفيـة من السلطان إذ رأى أن ابتعاده عن العاصمة سيؤدى إلى تآمـر السلطان وحاشيته ورجاله ضده، وعزله عن منصبه، ومنعه من دول دهلى، وانضم إليه الجيش فى إعلان التمرد والعصيان على السلطان، فأرسل إليه بهرام شاه رسول من رجال الدين ليحثه هو والجند على ترك الفتنة والمضى قـدما فى طريق الجهـاد فى سبيل الله، لكن الشـيخ الرسول لم يقم بالواجب الذى كلفه به السلطان، بل انضم إلى الثوار، وعـادوا جميعا إلى دهلى، وتركوا المغول يهاجمون لاهور.

أعد السلطان العدة للدفاع عن عاصمة ملكه، لكن رجال أمير حاجب داخل دهلى وساعدوا المهاجمـين على الاستيلاء على العاصمة، وقبـضوا على بهرام شاه سنة ١٢٤٢م، وولوا بدلا منه علاء الدين مسعود - حفيد ألتمش - وكان عمره لا يتجاوز السادسة عشرة.

لم يكن علاء الدين مـسعود أسعد حظا من سـابقة، فقد فـوض أمور دولته إلى قطب الدين حسين، وجعله نائبا ووزيرا له، لكنه استبد بالسلطة دونه، وأسند الوظائف الإدارية الهامـة فى الدولة إلى أعوانه وأنصاره على وزيره وقتـله، وعهد إلى نجم الدين أبى بـكر بمنصب نائب السلطـان، وعيـن «بلبن» فى منصب أمـيـر حاجب.

واجه بلبن صعابا جسيمة فى ضبط أمور الدولة، فقد كثرت الفتن والقلاقل بها، إذ حاول الأمراء الهنادكة الاستقلال عن دهلى وحاول أمراء الولايات كذلك الانفصال عن الحكومة المركزية وحارب بعضهم بعضا، وتعرضت البلاد كذلك لخطر المغول الزاحف إليها وبلغ من ضعف السلطة المركزية أن أمراء الولايات القريبة استنجدوا بالمغول لدحر كل محاولة قد تقوم بها لاستعادة سيطرتها على ولاياتهم.

على أن بلبن لم يستطع أن يمضى فى تنفيذ سياسته الرامية إلى إعادة الهدوء والسكينة إلى الدولة بسبب تعرضه لمؤامرة تستهدف إقصاءه عن الحكم، ذلك أن الهنادكة عولوا على إقصاء العناصر التركية عن إدارة أمور الدولة، والحلول حلهم، وقادة هذه الحركة عماد الدين ريحان الذى ولى منصب وكيل الدار، وأفلح فى إقصاء بلبن ورجاله الترك عن الحكم. وبذلك حل النفوذ الهندوكى محل النفوذ التركى فى سلطنة المماليك بدهلى.

على أن الهنادكة لم يستمتعوا طويلا بإدارة شئون حكومة دهلى ذلك أن الأمراء الترك ساءهم اعتصاب الهنادكة بقيادة ريحان السلطة فى دهلى، وعقدوا العزم على إعادة بلبن، وانضم إليه الكثيرون من حكام الولايات الترك، وطلبوا من السلطان إعادة بلبن وعزل ريحان، ولما لم يستجب السلطان لرغبتهم تعاضدوا وتحالفوا على تنفيذ رغبتهم بالقوة، فخرج السلطان من عاصمته دهلى لسحق تمرد الثوار لكن الثائرين هزموا جيش السلطان ودخلوا دهلى، وأعادوا بلبن إلى الوزارة، وعزل ريحان سنة ١٢٥٤م، وأحسن أهالى العاصمة الهندية استقباله بعد غياب دام عامين.

واجه بلبن مشاكل متعددة لإقرار الأمور فى الدولة، فالبلاد مضطربة، والثورات متعددة فى الإمبراطورية، وخصوصا قبائل المواتى Mewatis وأصبحت البلاد تعيش فى فوضى شاملة، لذلك كان على بلبن استعادة هيبة ونفوذ حكومة

دهلى والقضـاء على الفتن فى الولايات التابعـة لها، وقد فـوض إليه السلطان كل هذه الشئون بينما انصرف إلى مجالسة العلماء والدراويش.

أثبت بلبن كفاءة ومقدرة فى إدارة شئون الدولة، وإعادة الهدوء إليها، فقضى على الفتن الداخلية، وأخضع الكهـكرية وغيرها من القبائل الثائرة المثـيرة للشغب والفوضى، وزحف إلى الدواب Doab، وأخضع الأمراء الهنادكة الـثائرين بها، ما أعاد أودة والسند إلى الولاء والطاعة لحكومة دهلى.

على أن أبرز مـواقف هذا الرجل البطولية تجلت فى مـقاومـته لغـزو المغول للهند سنة ١٢٤٥، فقد هاجموا السند، وضيقـوا الحصار على حصن أوكا فتصدى فهم بلبن واشتبك معهم فى قتال مرير وأوقع بهم هزيمة كبيرة وردهم على أعقابهم خاسـرين وأمنت بلاد الهند الغربيـة من خطر المغول، وعادت سـيطرة دهلى على هذه المنطقة.

توفى ناصر الدين محمود بعد حكم عشـرين عاما، وكان عادلا كريما زاهدا متدينا، يرعى العلوم والآداب، وقد عهد إلى أبى عمر عثمان منهاج السراج بشغل وظيفـة كبـيرة فى بلاطه، ووضع هذا العالـم مؤلا كبـيرا أهداه للسلطان، أسـماه «طبقات ناصرى» ومكافأة كبيرة على هـذا الجهد الكبير، ومما يجدر ذكره أن ناصر الدين عاش عـيشه الـزهد، وكان يقتـات من عمل يده، إذ كان يـنسخ المصاحف ويبيعها، ويغطى بما يرد إليه من هذا العمل نفقـاته الخاصة، كذلك لم يتخذ خدما فى بيته، إنما كانت زوجته تباشر الشئون المنزلية بنفسها بما فى ذلك إعداد الطعام.

ذكرنا أن غياث الدين بلبن ارتفع إلى أعلـى المناصب فى إمبراطورية المماليك فى عهد ناصـر الدين محمود، ولعب دورا هاما فى تاريخ سلـطنة دلهى المملوكية حتى أن المؤرخين يذكرون أن تاريخ نـاصر الدين محمود هو فى حقيـقته حلقة من تاريخ بلبن، ولم يكن لدى السلطان ناصر الدين محـمود أبناء ذكور، وتزوج بلبن من ابنه ناصر الدين محمود، الأمر الذى يسر له أمر تولية السلطنة بعد وفاة صهره سنة ١٢٦٦م وكان قد جاوز الستين من العمر.

ينتمى بلبن إلى قبيلة تركية، كان أبوه من شيوخها، ووقع بلبن فى أسر المغول، واشتراه الخواجة جمال الدين فى البصرة، وبيع فى دهلى إلى ألتمش. ظهرت شجاعته ومقدرته فى سلك الجندية، فأدخله ألتمش فى جماعة حرسه، ولما وليت رضية السلطنة، أسندت إليه منصب أمير الصيد، وأدرك بهرام شاه شجاعته وإقدامه، فولاه بعض الولايات فأحسن إدارتها وأعاد إليها الهدوء والاستقرار، وراجت فيها الزراعة، وتحسن الأحوال الاقتصادية، ثم ولاه ناصر الدين محمود منصب الوزارة ونيابة السلطنة كما رأينا.

وواجه بلبن بعد توليته السلطنة نفس المشاكل التى واجهها فى عهد ناصر الدين محمود، فالبلاد مضطربة، والمغول عادوا إلى تهديد الحدود، وكان على بلبن أن يؤمن دولته من الأخطار الخارجية والمشاكل الداخلية، فبدأ بتقوية السلطة المركزية وأعاد الهيبة إلى بلاطه وحكومته، وذلك بأن جعل بلاطه قويا فخما كما كان أيام ملوك الفرس القدامى، وكان مجلسه يتسم بطابع الجد، وأعاد تنظيم جيشه وتدريبه على أحسن نظام. وأضعف من شأنه القادة المماليك - موالى ألتمش - وكانوا لا ينقطعون عن تدبير المؤامرات والدسائس التى تستهدف تقوية نفوذهم فى الدولة على حساب السلطان.

كذلك حرص بلبن على تنظيم إدارة الدولة، وأعاد الأمن والنظام إلى ربوعها، ولتحقيق ذلك أعد جهازا قويا للجاسوسية، يحيطه علما بكل أخبار الإدارات والمصالح الحكومية، ويكتبون له تقارير عن سير حكام الولايات وسائر الموظفين، وهؤلاء الجواسيس يرلقبون كل مصالح الدولة بما فى ذلك الجيش وبلاط السلطان، حتى أبناؤه، وكان هناك جواسيس لمراقبة سير الجواسيس فى عملهم، وكان الجاسوس يتعرض لأشد أنواع العقاب إذا تهاون فى عمله أو فى تأدية الواجب المكلف به ولم يلتزم بالدقة فى جمع الأخبار، أو لا يصدق فى تبليغها، وبلغ من حرصه على إقرار العدالة، ومنع الظلم أن أحدا كان لا يجرؤ على إيذاء خدمه ومماليكه.

بعد أن أعاد بلبن تنظيم الدولة، وأعاد إلى حكومة دهلى هيبتها، اتجه على القضاء على الفتن الداخلية فى الدولة، فضرب بيد من حديد على أهل مواتى، وكان قد أخضعهم أثناء وزارته، فلما ولى السلطنة، قطعوا الطريق، وسرقوا المسافرين وألحقوا بهم الضرر والأذى وخصوصا فى بهار، ونهبوا القرى وقتلوا الأبرياء واقترب خطرهم وشرهم من العاصمة دهلى فخرج بلبن من دهلى، وسار على رأس جيشه لإخضاعهم وهاجمهم هجوما عنيفا، وما زال يتعقبهم حتى شتت شملهم، وأمر بتطهير البلاد من الغابات والأدغال التى كانوا يحتمون بها، وما زال يتعقبهم حتى استأصل شأفتهم، وقتل قائدهم. رأى ضرورة المحافظة على الأمن والسلام فى الدولة، فأقام الحصون فى مختلف البلاد، يقيم فيها شرطة لحماية الناس من عدوان اللصوص وقطاع الطريق، وحول المناطق التى استأصل منها الغابات إلى أراضى زراعية، يقيم فيها جند لحراستها من غيث العابثين، وبذلك استتب الأمن والنظام فى الدولة.

كذلك تعرضت سلطنة المماليك فى الهند لخطر آخر من جانب الهندوس فى دواب ذلك أنهم قطعوا الطريق بين دهلى والبنغال فقاومهم حتى ضعفوا ووهنوا، وقبض عليهم وأسرهم.

وواجه بلبن مشكلة أخرى من جانب المماليك الذين اعترضوا توليته الحكم وسعوا إلى الخلاص منه، وكان سلطانهم قد قوى فى عهد ألتمش وخلفائه الذين منحوهم الإقطاعات الكبيرة، فطردهم بلبن من الخدمة العسكرية، وأمعن فى عقابهم، وقتل كثيرا منهم، وتخلص من هذه الفئة كلية. وبهذه الجهود أصبح بلبن سلطانا قويا مهابا يرعى جانبه رجال الدولة، ويخشون بأسه.

لم يكد بلبن ينتهى من مشاكله الداخلية، حتى واجه خطرا خارجيا جسيما، ذلك أن المغول عادوا من جديد إلى تهديد الهند بعد أن زحفوا إلى بلاد العراق بقيادة هولاكوخان، واستولوا على بغداد - حاضرة بنى العباس - وقتلوا الخليفة المستعصم سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٤م، واعتزم المغول غزو الهند بعد أن سمعوا عن

ثروتها، فأعد بلبن العدة لصد الأعداء عن بلاده، وبقى فى دهلى لا يغادرها وترك لقواده أمر تعقب الخارجين على سلطانه، حتى لا تتعرض العاصمة لخطر المغول، ولا تقاسى ما قاسته بغداد من ويلات، وأعاد بناء القلاع على الحدود بسبب غزوات المغول السابقة، وأقام تحصينات جديدة مزودة بالجند والسلاح، كما زود جيشه بالأسلحة والمعدات، وأسند القيادات العسكرية إلى رجال أكفاء وعين ابنه الكفء الشجاع محمد حاكما على الملتان، ووضع ابنه الأخر بغراخان على حراسه سمنة وسنام.

وكان لخطته الدفاعية أثرها الكبير فى درء خطر المغول عن ديار الهند، فحين هاجموها سنة ١٢٧٩، تعقبهم محمد وهزمهم، ودفع خطرهم عن بلاد الهند. وبذلك سلمت المماليك فى الهند من خطر المغول وويلاتهم.

على أن انشغال الحكومة الهندية فى الذود عن البلاد أدى إلى بروز مشكلة أخرى داخلية، ذلك أن البنغال بقيادة واليها "طغرل" عادت إلى محاولة الاستقلال عن دلهى، ولقب واليها طغرل نفسه مغيث الدين، وأمر بإقامة الخطبة باسمه، ونقش اسمه على السكة بدلا من بلب، فأرسل السلطان جيشا بقيادة أمير خان لإخضاع طغرل، وأعادت البنغال إلى الخضوع للحكومة المركزية، لكن طغرل هزم القائد الهندوكى، وغضب بلبن من قائده، وحمله مسئولية الهزيمة التى لحقت به، وحكم عليه بالإعدام، وأرسل جيشا آخر إلى التغال لسحق تمرد طغرل، لكن هذا الجيش لقى مصير سابقة، عندئذ لم ير السلطان بلبن بدا من المسير بنفسه إلى البنغال لإعادته إلى حوزته، وصحبه ابنه بغ راخان، وحينما اقترب السلطان من البنغال أخذ طغرل الجزع والفزع، وفر هو ورجاله إلى الغابات المجاورة شرق البنغال فى جاجنكر، وأرسل السلطان فرقه من الجيش لتعقب المتمردين، وعثروا عليهم فعلا، وشاهدوهم يشربون ويلهون والفيلة تتجول بين الأشجار، والخيول والمواشى تتغذى على النباتات، فباغتوهم على حين غفلة منهم، وما زالوا بهم حتى أفنوهم عن أخرهم وقتلوا زعيمهم طغرل.

بعد ذلك اتجه السلطان إلى لكهاونتى، وكانت تؤيد طغرل فى ثورته ضد دهلى فاختفى أغلب أعيانها خوفا من بطش السلطان، لكن بلبن لم يبرح البلدة إلا بعد أن نكل بالثائرين وبذلك إلى الولاة والطاعة للسلطان بلبن ولكى يضمهم بقاء البنغال على الولاء لدهلى، عهد إلى ابنه بغ راخان بكم البنغال وحكم بغ راخان وأعقابه البنغال أكثر من نصف قرن.

وجدير بالذكر أن البنغال سببت متاعب كثيرة لحكومة دهلى، فقد حاولت الاستقلال منذ أن حكمها الخليجيون منتهزين فرصة صعوبة المواصلات بين دهلى وبلادهم، فضلا عن بعد المسافة، وانتشار الأوبئة فيها. وبذل ألتمش جهودا كبيرة فى إخضاع البنغال وحذا طغرل - كما رئاينا - حذو الخليجيين فى محاولة الاستقلال عن دهلى منتهزا فرصة انشغال السلطان بلبن فى مشال الدولة الداخلية والخارجية.

على أن بلبن واجه كارثة أخرى مروعة، فقد توفى ابنه محمد وهو يقاتل المغول، ولم يحتمل صدمة موت ابنه، وتوفى بعدها فى سنة ١٢٨٧ بعد حكم دام أربعين سنة.

يعتبر بلبن من أعظم حكام الهند غى تاريخها الوسيط، فقد تغلب على الصعوبات الكبيرة التى واجهته، إذ وقف فى وجه الأمراء الهنادكة الذين حاولوا النيل من سلطانه، وقهر العصاة والمفسدين، وتمكن من درء خطر المغول عن البلاد، وأقر الأمن والنظام فى ربوع الدولة، واشتد فى معاقبة الخارجين على القانون والعدالة واتخذ بنفسه - كما ذكرنا - بلاد مهيبا له مراسم معينة، ورجال يرتدون أزياء معينة ومظاهر خاصة، واتخذ رجالا أكفاء فى إدارة شئون الدولة على انه لم يستطع توسيع رقعة دولته لانشغاله طوال حكمه بمشاكل الدولة الداخلية والخارجية، ولم يأل جهدا فى سبيل حماية الدين والمحافظة على الشريعة، وإقرار العدالة، وبنا دارا أسماها دار الأمن لرفع المظالم عن رعاياه، وتخفيف أعباء الحياة عليهم، وساوى بين رعاياه المسلمين والهنادكة أمام القانون وإذا كان قد أبعد

الهنادكة فترة ما عن مناصب الدولة الرئيسية، فإنه فعل ذلك بعد أن لمس منهم نزعاتهم الاستقلالية فى وقت تواجه الدولة فيه خطر خارجيا.

ولم يأل بلبن جهدا فى سبيل رعاية الفنون والأدب، وحرص على رفع شأن مجتمعه، فشجع الناس على التحلى بتعاليم الإسلام، وقد كان لعمله هذا أثر كبير على المجتمع الهندى حتى أن المؤرخين يغزون إليه ما يتمتع به الآن المجتمع الهندى من تقاليد رفيعة.

ومما يجدر ذكره أن هذا السلطان أكرم وفادة الشخصيات الإسلامية الكبيرة التى لجأت إلى الهند فرارا من بطش وجور المغول، وكان من بين هؤلاء فريق من بنى العباس ومن أمراء خوارزم وغيرهم، وقد أنزل كل فريق منهم فى حى خاص، سمى باسمه، مثل محلة عباسى، محلة خوارزمى، محلة ديلمى، محلة سنجر.. الخ.

لما شعر بلبن بدنو أجله عهد إلى ابنه بغراخان الحكم من بعده، لكن بغراخان رفض، وآثر البقاء فى البنغال، لذلك عهد السلطان إلى كيخسرو بن بغراخان بولاية عهده، وتولى كيخسرو السلطة فى دهلى سنة ١٢٨٧، وكان ضعيفا لا يستطيع القيام بأعباء الحكم، فأسند أمور الدولة إلى نظام الدين وكان رجلا طموحا استبد بأمور الدولة دون السلطان، وزين نظام الدين للسلطان الاستمتاع بمباهج الحياة واللهو والعبث، وأسند المناصب الرئيسية فى الدولة إلى رجاله المقربين إليه.

على أن بغراخان - حاكم البنغال - ساءه ذلك من علم من استبداد نظام الدين بأمور الدولة دون ابنه السلطان، وعقد معهم لقاء سريا حثه فيه على التخلص من نظام الدين ورجاله واستعادة نفوذهم فى الدولة، لكن الترك لم يمكنوه من ذلك بل عزلوه وولوا بدلا منه كيقباد - أحد أطفاله الصغار - على أن الخليجيين لم يمكنوا الترك من الاستبداد بأمر الدولة، فدخلوا دهلى، وأزالوا عنها حكم المماليك.

٢ - السياسة الداخلية لسلطنة دهلى الإسلامية فى العهد الخلجى

قيام الدولة الخلجية فى دهلى:

يرع البعض أن الخلجيين من أصل تركى، على حين يرى آخرون أنهم من أصل أفغانى ويؤكد بارالى أنهم ينسبون إلى قلبج خان - أحد أصهار جنكيزخان، نزل بجبال الغور بعد هزيمة شاه خوارزم، وحرف اسمه بعد ذلك إلى خلج، وقيل لورثته الخلجيون، وقد اندمجوا فى الحياة الأفغانية، واعتنقوا الإسلام فى عهد سلاطين بنى سبكتكين، وضم الجيش الغزنوى فرقا منهم ساهمت فى فتح الهند.

على أن نشاط الخلجيين اتضح فى عهده سلاطين الغور. فحينما ولى قطب الدين أبيك التركمانى الهند نيابة عن سلطان الغور، حرص على توسيع رقعة ولايته الجديدة فى بلاد الهند، فأسند هذه المهمة إلى قائده محمد بن بختيار الخلجى، فاستولى على بندنتبورى - عاصمة إقليم بهار - وكان يحكمها مولك أسرة بلا، ولم يلبس أن استولى على مملكة بلا بأسرها، وكانت الديانة البوذية سائدة بين سكان هذه المملكة، فحكم القائد الخلجى معابدهم وأصنامهم، ونشر الإسلام بينهم، وانضمت هذه البلاد إلى إمبراطورية الغور.

وأذن قطب الدين أيبك - نائب سلطان الغور فى الهند - إلى القائد الخلجى بمواصلة الفتح والتوسع، فاتجه محمد بن بختيار الخلجى إلى نادية - عاصمة البنغال الرغم من قلة عدد جنده، فإنه اقتحم نادية، وكان يحكمها لكمشن سنا من أسرة سنا ٥٩٥هـ/١١٩٦م، وفزع الملك الشيخ وجزع، ورأى أن لا قبل له بالغزاة المسلمين، فلاذ بالفرار من عاصمة ملكه، لا يلوى على شىء، وقد يسر ذلك للقائد الخلجى أمر الاستيلاء على نادية - عاصمة البنغال - فضمها إلى مملكة الغور، وأقام الخطبة فيها للسلطان الغورى، وقد مهد سقوط نادية فى أيدى الغور السبيل لهم لضم إقليم البنغال بأسره لدولتهم.

لم يكتف محمد بن بختيار الخلجى بما أحرزه من انتصارات رائعة، بل تطلع إلى المسير إلى التبت للاستيلاء على هذه البلاد، ففى سنة ٦١٣هـ/ ١٢٠٦م اتجه فى عشرة آلاف فارس إلى التبت، لكن حملته باءت بالفشل الذريع، وتعرض جنده لأهوال جسام أثناء انسحابهم، ولقى الكثير منهم حتفه فى عودتهم إلى "ديفكوت"، ولم يلبث هو كذلك أن توفى.

حرص خلفاء محمد بن بختيار الخلجى على بسط نفوذهم على بعض أقاليم الهند، فلما قامت دولة المماليك فى الهند، وولى شمس الدين ألتمش السلطنة فى دهلى، تعرض لمشاكل داخلية تهدف إلى إطاحته من الحكم، وأثار هذه المشاكل رجال الدولة الذين انتهزوا فرصة الفوضى التى أعقبت وفاة قطب الدين أيبك، وقد مهدت هذه المشاكل للخلجيين أمر السيطرة على بهار والبنغال.

على أن الملوك المماليك لم يقفوا مكتوفى الأيدى إزاء نزعات الخلجيين الاستقلالية، فلما غادر جلال الدين منكبرتى بلاد الهند، وزال خطر الخوارزميين عنها، وبالتالى خطر المغول، تفرغ السلطان ألتمش لقمع الحركات الاستقلالية فى دولته، ومن أبرزها استقلال غياث الدين الخلجى فى البنغال عن دهلى حيث أقام الخطبة باسمه، ونقش اسمه على السكة، وتلقب بألقاب الملوك، وقوى أمره واشتد بأسه وامتد نفوذه على البلاد الواقعة شرقى دهلى.

عول السلطان ألتمش على سحق محاولة الخلجى الاستقلالية، وسار على رأس جيش كبير من البنغال، ولما رأى الأمير الخلجى عدم استطاعته التصديلسلطان دهلى، أعلن عودته إلى الولاء والطاعة ونبذ التمرد والعصيان، وتعهد بالعودة إلى دفع الأموال المقررة عليه، إلا أنه لم يكن صادقا فى تعهده، بل كان يزمع انتهاز فرصة أخرى تتيح له العودة إلى الاستقلال بولايته، فلما انتعد السلطان ألتمش عن البنغال أعلن الاستقلال، وسار إلى بهار، واستولى عليها، غير أنه لم يهنأ بهذا الاستقلال طويلا، إذ سار إليه ناصر الدين محمد شاه - إلى أودة - من قبل

السلطان ألتمش - وهاجم البنغال، وأوقع الهزيمة بالخلجى وأنصاره وبذلك عادت البنغال إلى حوزته سلطان دهلى.

لكن الأمير الخلجى لم يستسلم لانتزاع البنغال منه، بل عول على استرداد هذا الإقليم، فلما توفى ناصر الدين محمد شاه - والى البنغال من قبل أبيه سلطان دهلى - عاد إلى البنغال وحكمها.

ضعفت دولة المماليك بعد وفاة السلطان بلبن وقد عهد بالحكم لابنه بغراخان لكن بغراخان آثر البقاء، وأسندت السلطنة إلى كيخسرو بن بغراخان سنة ١٢٧٨م، وكان ضعيفا لا يستطيع القيام بأعباء الحكم، فأسند أمور الدول إلى نظام الدين، وكان رجلا طموحا استبد بأمور الدولة دون السلطان، وزين السلطان أمر الاستمتاع بما فى الحياة الدنيا من مباهج حتى يبعدوه عن الانشغال بأعباء الحكم، وأسند المناصب الكبيرة فى الدولة إلى رجاله المقربين.

على أن بغراخان - حاكم البنغال - ساءه استبداد نظام الدين بأمور الدولة دون السلطان، وعقد معه لقاء سريا حثه فيه على التخلص من نظام الدين ورجاله، واستعاده نفوذه فى الدولة، ومباشرة مسئولياته بنفسه، ونفذ السلطان مطالب أبيه وتمكن من التخلص من نظام الدين ورجاله، واسترد نفوذه فى الدولة.

لكن السلطان كيخسرو لم ينفرد بالسلطة طويلا فقد تآمر عليه الترك، وعزلوه وولوا بدلا منه كيقباد - أحد أطفاله الصغار - السلطنة حتى يتيسر لهم الاستبداد بالدولة دونه.

استاء الأمراء الخليجيون من استبداد الترك بأمور الدولة، وعولوا على تغيير نظام الحكم فى دهلى، فساروا إليها بقضهم وقضيضهم بقيادة زعيمهم "فيروز" وهزموا القواد الأتراك، وأحدثوا أقلابا فى دهلى أحاحوا فيه بالسلطان الطفل، وأعلنوا فيروز سلطان، ولقب بجلال الدين، وكان ذلك سنة ١٢٩٠م.

ولم يتقبل أهالى دهلى حكم الخلجيين فى بادئ الأمر بالرضا والتأييد، لكثرة ما ألحقه جندهم ببلدهم من الخراب والضمار، وارتكابهم حماقات ذهب ضحيتها الكثيرون. على أن السلطان الخلجى الذى كان فى السبعين من عمره - تمكن بحسن سياسته وعدله ومودته أن يجتذب الناس إلى محبته. وبذلك خضع أهل دهلى للملك الجديد والعهد الجديد، ووفد الناس على السلطان الشيخ زرافات ووحدانا يبايعونه ويقدمون له فروض الولاء والطاعة.

* * *

كياسة السلاطين والخلجيين فى توطيد سلطانهم

لم يأل السلاطين الخلجيون جهدا فى سبيل سحق حركات التمرد والعصيان، ومنع اندلاع ثورات ضدهم والحيلولة دون حدوث الحركات الاستقلالية والانفصالية فى الدولة، وأول هذه الحركات الثورية سنة ١٢٩٠ حينما أعلن جيجو - حاكم إقليم كره - الثورة ضد الحكم الخلجى وهو ابن أخى بلبن وكان يطمع فى استعادة عرش دهلى، وقوى أمره واشتد بأسه وكثر أنصاره، وانضم إليه الكثير من الأمراء والراجات وتعاهدوا وتعاضدوا على الوقوف إلى جانبه ضد نظام حكم جلال الدين فيروز شاه وأعلن جيجوا الاستقلال عن دهلى، بل أعلن نفسه سلطانا، وتلقب بلقب مضيف الدين، وضرب العملة باسمه وأمر بذكر اسمه فى الخطبة، وأعد جيشا كبيرا للزحف إلى دهلى وأملاكها، وإسقاط الحكم الخلجى.

لم يقف السلطان جلال الدين مكتوفى اليدين إزاء هذه الحركة الخطيرة التى تهدف إلى انتزاع الحكم منه، بل عول على إحباطها، فاستخلف فى دهلى ابنه الأكبر ولقبه خان الخانات ركن الدين، وسار هو على رأس جيش كبير، يتكون من عشرة آلاف مقاتل وقسمه إلى قسمين، قسم قاد "أركالى خان"، والثانى تحت قيادته هو، وباغت أركالى الأعداء على حين غفلة منه وهزمهم شر هزيمة. غير أن المتمردين لم يهنوا ولم يضعفوا بل أعادوا تنظيم صفوفهم، ودخلوا مع أركالى وجنده فى معركة أخرى، وما علم جيجوا باقتراب السلطان، أسقط فى يده، وترك ميدان القتال ولاذ بالفرار لا يلوى على شىء، غير أن أركالى خان اقتفى أثره، ولجأ جيجوا إلى قلعة قريبة من ولايته، واعتصم فيها، فحاصره أركالى، وشدد عليه الحصار، ومنع وصول الأقوات إلى القلعة، حتى استسلم جيجوا، ووقع هو وأنصاره فى أيدى جيش دهلى، أما السلطان فقد سار إلى كره، وطهر فى طريقة البلاد من المتمردين وعناصر الشغب، واستعاد كره، وسيق الأسرى المتمردين مكبلين بالسلاسل والأغلال. على أن السلطان الرحيم أمر بفك قيدهم، وان تكفل لهم وسائل الراحة، وبدلا من أن يحاكمهم بتهمة الخيانة والغدر، عفا عنهم،

وتغضى عن خطاياهم وآثامهم، وشملهم بعنايته ورعايته وعطفه، وحذره قواده من هذا التسامح الذى قد لا يؤدى إلى وقف حركات التمر والعصيان، بل ربما تزيد الثورات اشتعالا فى دولته. ولكن السلطان الشيخ استند فى عفوه وصفحه إلى روح الإسلام التى تدعو على تجنب إراقة دم المسلم، وكان يرى أنه فى شيخوخته يجب عليه أن يختتم حياته بالأعمال الطيبة الصالحة. ومهما يكن من أمر فقد أفرج السلطان عن عناصر التمر والفتنة، وأرسل جيجوا إلى الملتان فى ظل حراسه مشددة.

ظهرت حركات معارضة أخرى لحكم الخلجى من بينها حركة دبرها أمراء ونيلاء ألتمش، وتزعمها تاج كوشى، وعقدوا عدة اجتماعات وندوات تحدثوا فيها عن مساوئ الحكم الخلجى وعدم جدارته بتولى زمام الأمور فى الدولة وعدم صلاحية جلال الدين بالذات لعرش سلطنة دهلى، واتفقوا على العمل على إزاحة الخلجيين عن حكم البلاد، ونقل زمام الحكم من جلال الدين إلى تاج الدين كوشى، ودبروا مؤامرة لاغتيال السلطان الخلجى. غير أن تفاصيل هذه المؤامرة نمت إلى علم السلطان، فأرسل إليهم يهددهم ويتوعدهم بسفيه إن لم يعودوا إلى الولاء والطاعة، ويقلعوا عن التآمر والتمرد فخشوا مغبة عصيانهم، وأرسلوا إليه وفدا يعتذر عما بدر منهم ـ ويطلب من السلطان العفو والصفح ويعلن عودتهم إلى الولاء والطاعة، عفا السلطان الطيب عنهم. وبذلك أحبط جلال الدين هذه المؤامرة بالطرق السليمة.

وتعرض جلال الدين لمؤامرة أخرى كادت تقضى عليه، ورأس هذه المؤامرة "سيدى مولى" وهو درويش من بلاد فارس، لجأ إلى الهند عقب الغزو المغولى لها، وأقام فى دهلى إبان حكم بلبن، وعاش فيها زهد وتقشى وخشونة، يتبسط فى طعامه ويلبس الخشن من الثياب، ومن الغريب أنه يتعفف عن أموال الناس، فلا يقبل ما يعرض عليه من منح وهبات، ورغم ذلك كان يتفق عن سعة، وبنى

خانقاه عظيمة، ووفد عليه الناس من كل مكان بعد أن بلغ صيته الآفاق، وكان يستضيفهم ويكرم وفادتهم، ويدفع هذه النفقات الكبيرة من ماله الخاص، ودهش الناس وأخذتهم الحيرة لعدم معرفتهم مصدر هذه الأموال حتى اعتقد بعضهم أن له صلة بالجن أو معرفة بالسحر.

كثر أتباع هذا الرجل من الصوفية والفقراء والمساكن والنبلاء أيضا، ونظر جلال الدين إليه نظرة شك وريبة فحضر مجلسه متنكرا، وشاهد بنفسه التفاف الناس حوله، وأتضح أن سيدى مولى ليس درويشا ولا متصوفا، وإنما يتخذ من هذا المظهر وسيلة لتحقيق أغراض سياسة، فقد كان بكثير من الاتصال بالأمراء والنبلاء وقواد بلبن المعارضين لحكم جلال الدين، وبلغ من ازدياد نفوذه أن خان الخانات ركن الدين بن جلال الدين أصبح من مريدية، وتدخل الشيخ الدرويش فى النزاع الذى حدث بين ابنى جلال الدين حول ولاية العهد، وحاول كل منهما تقوية مركزه بضم الأنصار والأعوان له، ومن ثم ظهر حزبان فى دهلى، الأول موال لخان، ويضم المناهضين للدرويش، وحرص خان الخانات على أن يخاطب الدرويش، وحرص خان الخانات على أن يخاطب الدرويش بالأبوة حتى يكتسب إلى جانبه أنصار الدرويش.

حرصت الحركات المعارضة للحكم الخلجى على نيل رضا الشيخ الدرويش حتى أن أبناء أمراء العهد البائد تطلعوا إلى الشيخ للوقوف إلى جانبهم فى استعادة نفوذهم، وخلع السلطان الخلجى.

ومهما يكن من أمر فقد دبر هؤلاء المعارضون للحكم الخلجى مؤامرة لاغتيال السلطان جلال الدين وهو ذاهب لصلاة الجمعة فى مسجد دهلى الكبير، وبعدها يعلنون سيدى خليفة ويتزوج من ابنة السلطان ناصر الدين غازى كيلانى، ويحصل على لقب غازة خانه ثم يعين أبناء بلبن فى الوظائف الرئيسية فى الدولة، على أن هذه المؤامرة فشلت فشلا ذريعا، فقد علم السلطان بأنبائها ومخططها، وأمر بالقبض على جميع المتآمرون وأجبروا بالعنف والشدة على الاعتراف بتفاصيل

المؤامرة، وأمر السلطان بإعدام المتآمرين على حياته - وعلى رأسهم سيدى مولى، وامر بنفى وجن المتآمرين الآخرين، ولقد كان لمقتل سيدى مولى صدى كبير فى دهلى فقد غضب أنصاره ومريده لمقتله، وبنادوا بالانتقام لمولاهم الذى قتل ومالت شهيدا حسب اعتقادهم. غير أن ثروتهم أخمدت. وبذلك نجا السلطان ودولته من محاولة قلب حكومته.

لم تنته متاعب السلطان الخلجى عند هذا الحد، بل واجه حركة استقلالية عن دولته تزعمها مدينة رانثمبهور، وجدير بالذكر أن هذه المدينة كانت قوية التحصين حتى أن الغوريين لم يستطيعوا الاستيلاء عليها، واستطاع ألتامش السيطرة عليها سنة ١٢٢٦م، واستعادها الراجبوتيون فى عهد السلطانة رضية المضطرب، ولما ولى بلبن السلطة استردها، ولكنها عادت إلى الثورة من جديد فى عهد جلال الدين الخلجى. ولم يتغاض هذا السلطان عن هذه الحركة الانفصالية فأنتاب عنه فى دهلى، ابنه أركالى خان وسار هو على رأس جيش كبير لإعادة الأمن والهدوء إلى هذه المدينة فى مارس سنة ١٢٩١م، واجتازت قواته صحراء الثأر القاحلة الموحشة، وقاسى الجند لإعادة المن والهدوء إلى هذه المدينة فى مارس سنة ١٢٩١م، واجتازت قواته صحراء الثأر القاحلة الموحشة، وقاسى الجند فيها ألوان العذاب واهلك العطش والجوع الكثير منهم، وظلوا على الحال عدة شهور أكلوا معظم دوابهم، ومهما يكن من أمر فقد بلغ جلال الدين وجنوده مدينة رانثمبهور، وأرسل فرقا استطلاعية لاختبار قوة المدينة وحشد جيشه على حدودها، ورأى السلطان أن يستولى على مدينة غين jhaijn قبل رانثمبهور حتى لا يطعن جندة أثناء هجموها على رانثمبهور، وباغت الجند الخلجى غين، وألقوا الذعر بى سكانها، وقتلوا الكثير من سكانها، ولم يستطيع راجا هذه البلدة دفع الخليجيين عن ديراه، وفر من نجا جلال "عين" وضمها إلى حوزته، وأعجبه جمال البلدة وروعة ما فيها من تماثل منقوشة من الحجر أو الخشب فى قصر الراجا، وزار معابد البلدة، وشاهد نقوشها البديعة وتحفها الذهبية والفضية الرائعة، غير أن جلال

الدين أمر بإحراق التماثيل والتحف لأنها ترمز إلى عبادة الأصنام، وأخذ قطعتين من البرونز من تمثال لبرهاما وأمر بتفتيتها إلى قطع صغيرة، ووزع بعضها بين ضباطه وجنوده وكبار موظفى دولته، وزين بالبعض الآخر بوابات مسجد دهلى الكبير.

وبعد أن استولى جلال الدين على غين، أرسل فرقا من جيشه إلى مالوا malwa وحطمت معابدها وعادت محملة بالغنائم والأسلاب. وقد مهدت هذه العمليات الحربية لشن الحرب على رانثمبهور، وإعادتها إلى حوزة دهلى، وكان صاحبها قد أعد جيشا كبيرا لصد هجوم جلال الدين، وانضم إليه عدد كبير من راجات البلاد المجاورة، وتعاضدوا جميعا على صد الجيش الخلجى، وحصنت المدينة خير تحصين، ولما نمى إلى علم السلطان قوة تحصين البلدة، واستعداد أهلها الكبير للدود عنها ودرء هجمات العدو، خشى إن اشتبك معه أهل رانثمبهور أن يقتل ويجرح الكثير من جنوده المسلمين، وهو كرجل مسلم يحرص على عدم إراقة دم المسلمين الذى يؤدى بالضرورة إلى ترميل النساء، وتيتيم الأطال، وهو أمر لا يحتمله، ويخشى وقوعه، لذا قرر هذا الشيخ الطيب الرحيم رفع الحصار عن رانثمبهور وأمر بانسحاب لنصيحة قواده ومستشاريه بسوء عاقبة هذا العمل وما ينجم عنه من ضياع هيبته بين سكان هذه البلاد. وفعلا كان لانسحاب جلال الدين أثر كبير فى تشجيع الحركات الانفصالية، فقد استردت غين استقلالها، وخرجت رانثمبهور من هذه المحنة ظافرة منتصرة، وتحقق أملها وحملها فى الانفصال عن دهلى.

ومن أهم الأحداث الداخلية التى شهدتها سلطنة دهلى، تآمر علاء الدين على عمه السلطان جلال الدين، فقد كان هذا الأمير، طموحا يتطلع إلى العرش على الرغم من أن عمه الفسلطان قد أسند ولاية عهده إلى ابنه ركن الدين، وكان علاء الدين قد ولى من قبل عمه حكم إقليم كره سنة ١٢٥٤م، وأسند إليه قيادة بعض الغزوات فى أرجاء الهند كان آخرها الدكن، وأحرز من هذه الغزوة بعض

الانتصارات، وعاد إلى كره محملا بالغنائم والأسلاب، وحينئذ واتته الفرصة لتدبير مؤامرتاه ضد السلطان، فأرسل إليه يخادعه ويدعوه إلى زيارته، ويزعم ولاءه ومحبته له، ولم يجد السلطان الشيخ غضاضة فى الاستجابة لدعوة ابن أخيه على الرغم من تحذير رجاله له، وسار إلى كره، وافلح علاء الدين فى إقناع السلطان بنزع أسلحة جنده منعا لحدوث صدام بين جند كره وحند دهلى، أما علاء فقد أعد جيشه وزوده بالأسلحة والمعدات، وزوده بالخيل والفيلة، وركز جنده فى عدة مواضع. ولما وفد السلطان على ابن أخيه، وأدرك سوء نواياه، تاسقط فى يده، وأرك أنه لا محالة هالك، وانصرف إلى قراءة القرآن، هنا أمر علاء الدين بقتل السلطان، ولما نفذت المؤامرة أعلن علاء الدين بقتل السلطان، ولما نفذت المؤامرة أعلن علا الدين نفسه سلطانا، وركب جنده الفيلة، ورفعوا رأس جلال الدين على حربة، وتجولوا بها وقد أدى موقف أركالى خان إلى تقوية شأن علاء الدين، وزيادة الضعف والانقسام فى جيش دهلى، وبالغ علاء الدين فى بذل الأموال والهدايا لأنصاره حتى انضم إليه الكثير من جند ركن الدين، فأسقط فى يده، واعتزل العرش، ومهد ذلك لعلاء الدين أمر توليه العرش فى دهلى.

دخل علاء الدين دهلى سنة ١٢٩٦م، وأعلن نفسه سلطانا، وقبض على ركن الدين إبراهيم، وسمل عينيه كما زج بأمه فى السجن، واستصفى أموال أصار الحزب الجلالى، ولقب بأبى المظفر السلطان علاء الدنيا والدين محمد شاه خلجى، وضرب العملية باسمه، وأقيمت الخطبة باسمه، وفرض الهدايا على النماس، وأقيمت الزينات السرادقات فى كل مكان، وأقبل الناس عليه كل صوب وحدب مؤيدين ومبايعين. وبذلك تربع علاء الدين على عرش سلطنة دهلى بعد أن تلخصم عمه وابن عمه، وقوى من شانه وجذب الأنصار والأتباع له.

لما ولى علاء الدين السلطة، واجه مشاكل داخلية وخارجية معقدة، فبلاده هدف لغزوات المغول من الشمال الغربى سنويا، وهذا الغزو يقترن عادة بالخراب والدمار، واقتطاع أراضى من مملكته، كذلك انتقم أركالى خان - ابن السلطان

جلال الدين - من عـلاء الدين، فاسـتقل بإقليم الملتان، وضم إلـى حوزته السند والبنجـاب ن وبذلك اقـتـطع من سلطنة دهلى بلادا واسـعـة، وفى الـسند مملكة الكجرات الغنيـة ويحكمها الأميـر الراجيوتينى وبالقـرب من الكجرات تقع ممالك الأمراء الراجيبـوتيين فى صحراء الثأر، وكل إمارة مسـتقلة عن الأخرى، وتحرص على الانفصال عن دهـلى، ولم يستطيع سلاطين دهلى من قبل إخـضاعهم، ومن ناحية أخـرى توجد ممالك مثل شيـتور ورانثمبـهور تقف من دهلى موقفـا عدائيا- يضـاف إلى أن بعض إلى بلدان سلطنة دهلى مـثل ملاوى ويوجـين لم تتأثر بعـد بالحضـارة الإسلامية، بل تنتـهز الفرصة المواتـية لاستقـال عن دهلى، وتقف منها عدائيـا عدائيا أمـا البنغال فولى حكمـها ناصر الدين مـحمود بن بلبن وأعـقابه، واستقلوا عن دهلى. وحكم الدؤاب وما جاورها أمـراء مستقلون عن دولة الإسلام فى الهـند. وبذلك ولى عـــلاء الدين السلـطنة، فى وقـت تفككت فـى الدولة الإسلامية فى الدولة الإسلامية فى الهند، وانفصل عنها الكثير من أقاليمها.

Baghela Ujjain Dhar chittor

ولى عـلاء الدين السلطنة فى وقت كـانت فى اشـد الحاجـة إلى رجل دولة مثله، فـالسلطان الجديد يختلف عن سـلفه جلال الدين فهـو يمتاز بقـوة البأس، والحزم وحسن التدبير، والكفاءة العـسكرية والإدارية، فقبض على زمام الأمور بيد من حديد، وبذل قصـارى جهده فى إعادة الوحدة إلى دولتـه، وإنقاذها نمن الهوة التى تردت فيها، ودرء الخطر الخارجى عنها.

وأبرز أعداء السلطان الجديد، وهم أبـناء جلال الدين ونبلاء دهلى، وهؤلاء يعـارضون العـهـد الجديد كـما أن الـراجات الذين اسـتـقلوا عن دهلى فى أثناء الاضطرابات التى حدثت فى أواخر جلال الدين، وبعد مصرعه من واجبه إعادتهم إلى الولاء والطاعة له، وكـان عليه تنظيم إدارة البلاد، وتقوية الحكومـة المركزية، وضمان طاعة وولاه القادة العسكريين، والحكام المسلمين فى الولايات.

أعد عـلاء الدين جيشا فى سنة ١٢٩٦ لإخـضاع أركالى خان الذى اسـتقل بالملتان وغيرها - وسار هذا الجيش إلى الملتان ولم يستطع أركالى له دفعا بل قبض عليه وعلى إخوته قاربه وقادته وعوقبوا أشد العقاب وصودرت أموالهم وأمتعتهم، ونكل بهم أشد تنكيل. وبذلك استرد إقليم الملتان وبلاد البنجاب والسند، وضمها إلى حوزته.

لم يكتف علاء الدين بذلك، بل صادر ممتلكات نبلاء جلال الدين، والأمراء والملوك الذين عملوا تحت قيـادته - ولكن لا يطمئن إلى ولائهم، وحرص على لا التنكيل بكل من حامت حـوله الشبهات بعدم الولاء والطـاعة له، وذلك بالمصادرة والسجن والتشويه، وبذلك والولاء له، وجمع من المصادرات أموالا طائلة، مكنته من توسيع رقـعة دولتـه، ودر الخطر عنها، والتـصدى للحركـات الانفصـالية فى المملكة.

تتابعت انتصارات علاء الدين وفتح الكثير من البلدان، وضمها إلى حوزته، وحـالفه التـوفيق فى دفع الغـزو المغولـى المدمر عن الديار الإسـلاميـة فى الهند، فأخـذته نشوة النصر كل مـأخذ، وركبـه الغرور، وذهب عنه صوابه، فـتوهم أن باستطاعـته أن ينجز إنجـازات الاسكندر الأكبر من حـيث غزوه للعالم أو مـحاولة ذلك، وقهر الدنيا تحت سلطانه، بل ذهب إلى أبعـد من ذلك، فقد تصور أنه نبى لدين جديد وصـاحب لا رسالة الأربعة وبدأ يتـحدث عن إمكانية نشـر دعوته فى أرجاء الدنيا، واستطاع بقوة بأسه وقوة جيشه وجنده التبشير بالدين الجديد والرسالة الجديدة، واسـتهوته قـصص وأحاديث الشعراء والمـؤرخين والأدباء عن الاسكندر الكبر، والتف حـوله الانتهازيون الراغـبون فى تحقيق منـافع شخصيـة، فزينوا له صـحة مـا توهمه، وروجـوا دعوته، وهيـأ السلطان نفـسه لأن يصـبح الاسكندر الثانى. ومما لا شك فيه أن رجال البلاد والقادة المقربين إليه قد وافقوه لا اقتناع بل اتبعوه رهبة منه، وخوفا من قسوته وبطشه، فلم يسعهم إلا التعبير عن رضاهم.

تصور السلطان أنه على حق فيما ذهب إليه، وجنون العظمة إلى التمادى فى أفكاره وخيالاته وكان السلطان يقيم الحفلات الكثيرة، ويجمع فيها أكبار رجال دولته، ويتحدث فيها عن دعوته، وفى هذه الحفلات حذره عمه علاء الملك القاضى من خطورة ما ذهب ليه على ملكه، وعلى الوضع المال داخلى فى البلاد، ومن انتفاضة الكثيرين من الغيورين على دينهم، فقال: عن الدين يوحى به الله للخيار من عباده، ولا يمكن أن يكون يفعل أو يصنع إنسان وقال: إن الإسلام دين الحق يمكن القضاء عليه. حتى إ قهار العالم وجبابرتهم مثل "جنكيزخان"، أراقوا من دماء المسلمين ما أراقوا ولكنهم لم ينالوا من الإسلام شيئا، بل دخل المغول فى دين أفواجا، وأوضح أن الناس إذا وجدوا السلطان يشككهم فى معقداتهم فن يسمعوا له ويطيعوا بل سيدمرون ملكه، وبذلك تعم الفوضى البلاد، وينتهز أمراء الأقاليم فرصة هذه الفوضى، ويحققون أملهم فى الاستقلال عن دهلى. وأوضح علاء الملك للسلطان أن النبوة لا تأتى الملوك، وإن كان بعض الرسل قد أوتى من الملك نصيبا، وأما عن فكرة قهر العالم، فقد أوضح علاء الملك للسلطان أن الظروف تغيرت، وإن الإسكندر كان يستند إلى حكم الحكماء مثل "أرسطو" الذى أوتى الحكمة وفصل الخطاب، وهو مالا نظير له عند علاء الدين، كما أن الاسكندر ورث عن أبيه فيليب المقدونى، دولة اليونان الموحدة ذات الإدارة القوية.

وختم القاضى نصيحته للسلطان بقصر جهوده وتركيزها فى إخضاع بلاد الهند لسلطانه، وقهر الكفرة فيها، والدعوة على الإسلام فى غير وبلاد الإسلام وإصلاح البلاد، والقضاء على الفتن والثورات وحماية البلاد من هجمات المغول، وقد لقيت نصيحة علاء الملك أذنا صاغة من السلطان فأقلع عن فكرة الدعوة لنبوته وتأسيس دين جديد والتفرغ للغزو والفتح وإصلاح البلاد؟ وبذلك عدل السلطان عن دعوته التى كانت ستؤدى إلى ثورات وانتفاضات فى المملكة. قد يذهب ضحيتها السلطان أو تفكك عرى الوحدة فى البلاد.

تعرض علاء الدين لمؤامرة كادت تودى بحياته، وقاد هذه المؤامرة ابن أخيه

سليمان شاه، وكان يشغل منصب وكيل الدار، وأراد بخطبته أن يسقى علاء الدين نفس الكأس الذى أسقاه لجلال الذين، ويتـولى هو - أى سليمان شاه - السلطنة، وكان علاء الدين قـد أرسل عدة حملات إلى نواحى الهند للفـتح والتوسع، بينما سار هو إلى رانثـمبهـور، وتوقف فى تلبات tilpat لبعض الوقت، وباعـته قواده الذين أنضموا إلى سليمان شاه فى مؤامـرته ورموه السهام فأصيب بجراح شديدة، وأعلن المتآمـرون مقـتله، وأعد سليمـان شاه العـدة لتولى السلطنة، وسـاد الذعر معسكر السلطان، وتفرق الجند السلطانى. وفى خضم هذه الفوضى. أخفى أنصار السلطان، السلطان، وضمدوا جراحاته، وعالجوه خير علاج وأنجعه. وحينما توجه سليمان شاه - رأس المؤامرة إلى المعـسكر السلطان مطالبا تسليمه له، رفض رجال علاء الدين ذلك، فـجأة حدث مـال يكن فى حساب المتـآمرين، فقد ظهـر علاء الدين فجـأة وإن كان ضعيـفا من ثار الجروح، فـأسقط فى أيدى المتآمـرين فلاذوا بالفرار بقيادة رئيسهم شاه لا يلوون على شىء إلى أفغانستان، وبذلك أحبطت هذه المؤامرة التى كادت أن تؤدى بالسلطان عـلاء الدين وتمهيد السبيل لتـولى ابن أخيه سليمان شاه سلطنة دهلى.

رأى علاء الدين ضرورة استئصال شأفة فأرسل فرقا من جيشه إلى أفغانستان للقبض على المتآمرين، وأدى الجيش مهمته فقبض على سليمان شاه وقتل وحملت رأسه إلى مـعسـر السلطان وانتقم السلطان شـر انتقـام من المتآمـرين فأمر بقـتلهم ومـصادرة أمـوالهم، وسبى نسـائهم وأطفالـهم، وتوزيعهم على القـلاع، وبذلك فشلت محاولة التخلص من علاء الدين، وخرج من هذه المحنة قويا.

على أن اغتـصاب علاء الدين العـرش من عمه سبـب له متاعب كثـيرة إذ أصبح واضـحا عدم، جود قـاعدة ثابتة لوراثة الملك وكان ذلك من أسـباب طمع سليـمان شاه فى اغـتصـاب العرش، واشـغل بعض أمراء الأسـرة ثورة فى دهلى منتهزين فرثة غياب علاء الديـن عنها، وطالبوا بعزل السلطان، وتولية واحد منهم الحكم مبررين تذمرهم بشدة السلطان وقسوته، واستبداد وجوره، وغير أن حكومة

دهلى قبضت على المتآمرين، وسيقوا إلى علاء الدين فى رانثمبهور، بأمر بسلمهم، وزجهم فى السجون، ونكل بأتباعهم.

ولم تنته متاعب علاء الدين عند هذا الحد، بل واجه حركه ثورية أخرى ضد نظام حكمه قادها "حاجى" مولى وهو رجل طموح واسع الاطماعه، كان يشرف على إدارة بعض الأراضى الملكية، ولقد بدأ حاجى مولى مؤامرته بالتصدى لتيرميزى Tirmizi، الذى عهدت إليه حكومة دهلى بإصلاح بوابة بادون، وعرف عن هذا الرجل شدة البأس والعنف والغطرسة، لذا أضمر أهل دهلى له السوء، وبينما صاحبنا يصلح بوابة بدون أحاط بمسكنه عدد من الأكواخ أقان فيها العمال الذين عهد إليهم بتشييد القلعة، وتوجه حاجى مولى إلى منزله، زعمال أنه يحمل إليه رسالة من السلطان، وبينما تيرميزى يتسلم الرسالة باغته حاجى ورجاله وقتلوه، واخرج من جيبه خطابا للناس نسبه إلى السلطان زعم فيه أن علاء الدين أمره بقتله، وقد أخذ الناس الجزع والفزع بعد هذا الحادث حتى أغلقوا منازلهم وانضم إلى حاجى مولى المتذمرون من علاء اليد، والجند الفارون من جيشه بعد أن أضناهم طول الغياب فى الحرب والقتال. وأفح حاجى مولى فى إشاعة الفوضى والذعر فى دهلى، والتمكين لنفسه، وقاد أتباعه إلى السجون، وأمرهم باقتحامها، والإفراج عن نزلائها، فكثر أتباعه وقوى أمره، واشتد بأسه، وأطلق لأتباعه العنان فنهجوا خزينة الدولة، ووزع الأسلحة والخيول والأموال على أصحابه وحصل على أموال طائلة من أعمال السلب والنهب التى قادها، واختار طفلا من سلالة ألتمش، وأعلنه سلطانا بدلا من علاء الدين الذى أعلن عزله، واعتزم أنه يحكم البلاد باسم هذا الطفل، وقد لقيت خطته قبولا من كثير من سكان المملكة إما رهبة أو كراهة لعلاء الدين، فوفدوا على السلطان الجديد وبايعوه وقدموا له فروض الولاء والطاعة.

كان طبيعيا ألا يقف علاء الدين مكتوف اليدين إزاء هذه الثورة التى هدمت دولته وملكه، فاتخذ الأهبة لإخمادها، وعهد بهذه المهمة إلى ملك حميد الدين،

وبلغ خان، وسار جيش السلطان إلى دهلى، اشتبك مع حاجى ورجاله فى عدة معارك، انتهت بهزيمة حاجى، وسجق قوات التمرد، وقتل حاجى مولى، وعلقت رأسه على حربة، ودار بها الجند فى شوارع دهلى، ثم أرسلت على علاء الدين فى رانثميهور، وحرص حميد الدين على استئصال الفتنة من جذورها،ـ فأمر بالقبض على أعوان وأنصار حاجى مولى، وصادر أموالهم، التى يسر حاجى لهم نهبها، وأودعت هذه الأموال فى خزينة الدولة، وانتقم حميد الدين من الثوار فقتل كل

من قبض عليه. وما لاشك فيه أن إخماد الثورات التى قامت ضد علاء الدين بالعنف والقسوة أدى إلى استتباب الأمر للسلطان، وإعادة الهدوء والسكينة إلى البلاد، وإخماد الفتن والثورات، وتوقف حركات التمرد والعصيان.

على أن كثرة الثورات التى حدثت ضد السلطان علاء الدين جعلته كثير الشك والريبة فى رجال الدولة حتى المقربين إليه، فيتهمه بعض المؤرخين بتدبير اغتيال يلغ خان أثناء سيره إلى دهلى لقمع حركة حاجى مولى، إذ خشى أن ينتزع سلطانه، ولكن باراتى يشك فى هذه الرواية التى رددها بعض المؤرخين، ذلك أن يلغ خان كان شديد الإخلاص للسلطان، وحزن عليه علاء الدين كثيرا،/ بل أمر بتوزيع الصدقات على روحه.

غادر السلطان الدين رانثمبهور، واتجه إلى دهلى، وتردد كثيرا فى دخولها، وبقى فترة من الوقت يجول ويصول فى ضواحيها، ولا يجسر على دخولها، لأن دهلى كثيرة الثورات ضد الحكم الخلجى، وزامر قواده بتطهير العاصمة الهندية من المتمردين، ولما اطمأن إلى استتباب الأمن والنظام فى دهلى، وخلوها من عناصر الثورة والفتنة دخلها، واخذ فى إصلاح أحوالها، وحل مشاكل الجماهير بها.

واستطاع علاء الدين بفضل ما بذله من جهد إعادة الأمن والطمأنينة إلى البلاد غير أنه لم يضع الحلول المناسبة التفادى المشاكل لتفادى المشاكل الناجمة عن عدم وضع قواعد ثابتة لوراثة عرش دهلى، الأمر الذى أدى إلى حدوث ثورات

وفتن حـول اغتـصاب الحكم. بأبعـد عن البلاط كل أعـوان وأنصار سـيده عـلاء الدين، وجردهم من وظائفهم وأسندها إلى أعوانه وأنصاره.

على أن كافور لم تصف له الأمور، ولم تبـتسم له الأيام طويلا، ولم يسعد بالسـيطرة على سلطـنة دهلى على الرغم من إجـراءات العنف وسـيـاسـة البطش والقمع التى اتخذها ضد المشتبه فيهـم، فقد تذمر منه الناس وترقبوا ساعة الخلاص من هذا الحكم الغـاشم، وأحـاطوا كل تحـركاتـه بالتجـسس، وبرت الكثـيـر من المؤامرات للتخلص منه، وأخـرها حدث حينما أرسل فريقا من جنده لـقتل مبارك خان فى سجنه، ولما اقـترب الجند من هذا الأمير، ألقى مـا لديه من ذهب وفضة لهم وناشدهم عـدم التعرض له، فاستـجاب الجند لندائه، وتيقظ ضـميرهم، ولم يكن غائبـا عن أذهانهم أن كافـور رجل ظالم مسـتبد، وين ألوان للتـخلص منه، وتمردوا عليه، بل ساروا إلى قصره، وشنوا عدة هجمات على القصر، وتمكنوا من اقتحـامه أخيرا، وقتلوه، وبذلك خلصـوا البلاد من استبداد وبطش وجـور كافور الغاشم الذى حكم البلاد خمسة وثلاثين يوما ارتكب خلالها أعمالا عدوانية بشعة ضد أفراد البيت الحاكم ورجال سيده.

لم يكتف الثوار بذلك، بل أفـرجوا عن مبارك وعينوه نائبـا للسلطان شهاب الدين بدلا من كافور، وقـد بدأ حكمه للبلاد بداية حسنة، فـأعطى النبلاء والقواد ورجاله أمـانا على أنفسهم، ورد إليـهم الأموال التى صادرها كـافور منهم فطابت نفوسهم ورضوا عنه وناصروه والتفوا حوله وأيدوه، غير أنه عاد الاستبداد وأعمال العنف، وحديثـه نفسه بالانفـراد بالسلطة فنفى شهـاب الدين عمر إلى جـاوليار، وعزله عن العرض وولى هو السلطنة ولم يعد له منازع فى الحكم أو البلاط واعتزم تحطيم وتدمير كل مـراكز القوى التى بالمملكة، والتى قد تضـعف نفوذه أو تعرقل سياسته، وبدأ بالجند الذين أفرجوا عنه، وقتلوا كافور، وولوه بدلا منه فشتتهم فى البلاد، ورفض الاستعانة بهم فى إدارة دولته، وفى نفس الوقت تخلص من أنصار كافور، وكل من يخشى بأسه.

كان كافور خصم علاء الدين مقربا إليه وصاحب حظوة عنده، وكان طموحا يتطلع إلى السيطرة على مقاليد الأمور فى البلاد عقب وفاة سيده، فانتهز فرصة اشتداد مرض السلطان، وحمله على كتابة وصية بتولى ابنه الطفل عمر خان - وكان غرات صغيرا لا يتجاوز السادسة من العمر وفى نفس الوصية طلب السلطان من ابنه الأكبر خسرو خان التخلى عن المطالبة بالعرش، ولزوم الولاء والطاعة لأخيه الصغير، وعهد السلطان إلى كافور بالوصاية على ابنه الطفل، وبذلك حقق كافور على يد سيده السلطان ما كان يصبو ويتطلع إليه من الاستئثار والنفوذ فى سلطنة دهلى.

لما توفى علاء الدين سنة ١٣١٦م جمع كافور النبلاء وكبار رجال الدولة، وأظهر لهم وصية السلطان الراحل التى أودعها إياه والتى تتضمن تولية ابنه شهاب الدين عمر. وبذلك خلف هذا الطفل الصغير أباه ولقب شهاب الدين عمر خلجى. وبتوليته أصبح كافور سيد الموقف فى سلطنة دهلى بلا منازع.

ولكى يكتسب كافور احترام وتقدير الناس، وتزداد سيطرته على السلطان الطفل وعلى الحكم، تزوج من أمه راما ديفا Rama Deva وأمر بسمل عين خسرو خان الابن الكبر للسلطان علاء الدين وأخيه شادى خان، حتى لا يطالب أحد الأخوين بالعرش بعد أن فقدا الإبصار، ولم يكتف بذلك، وإنما جرد والدة خسرو خان من حليها، وأمر بنفيسها إلى جاوليار.

وشعر كافور أنه غير آمن عل نفسه، وفعلا اشتدت المعارضة له ولحكمه، واستنكر الناس فعله واستقبحوه، ولم يرضوا عن سيطرته على الحكم، فضلا عن تشويه وإذلال بعض أفراد البيت الحاكم، وعادت الفوضى والاضطرابات إلى البلاد، فسعى إلى حماية نفسه من أعدائه المتربصين به، فعمد إلى نفى كل من تحوم حوله الشبهات من الأمراء وقواد الجيش وكبار رجال الدولة، بل شوه بعضهم بالسهام، وصادر أموال معارضيه فضلا عن إلحاقه ويلاته بهم، وازدادت شكوكه.

أعلن مبارك شاه نفسه سلطانا فى أبريل سنة ١٣١٨ وبدأ عهده كما فعل أسلافه من قبل بمنح الهبات والهدايا والألقاب لكبار رجال الدولة.

كانت البلاد فى ذلك الوقت تمر بظروف حرجة للغاية وفى أشد الحاجة إلى حكومة قوية تنقذها من الهاوية التى تردت فيها، وترأب الصداع، وتعيد الأمن والطمأنينة إلى الناس، بعد أن فرقت بلادهم الفتن والثورات، وعمت فيها القلاقل والاضطرابات نتيجة للمنازعات والمشاحنات حول السلطة والنفوذ، وأدى السلطان الجديد فى مستهل عهده دوره فى إعادة الهدوء والسكينة إلى البلاد، وأثبت أنه رجل الساعة، وأصلح البلاد فاطمأن الناس إلى العهد الجديد.

وأفرج السلطان عن اللوف الذين زجوا فى السجون بتهم التمرد - أو الاشتباه فى ذلك - على كافور، ومنح الجند مكافآت مالية، وأغدق المال على المحتاجين من رعاياه، ووزع الأموال التى صادرها علاء الدين إلى أصحابها، وخفف عن الناس عبء الضرائب ومنع كبار موظفى الحكومة من استغلال الأهلين، وكان ينظر فى الشكاوى والالتماسات التى يرفعها الناس له، ويضع بنفسه الحلول المناسبة لها، وألغى القوانين الصارمة التى وضعها علاء الدين على التجار، وكانت تحد أرباحهم فانتعش التجار، وراجت التجارة، وخفف عن الفلاحين ضريبة الأرض، ورفع أجور الموظفين. وباختصار تحسنت أحوال الناس المعيشية على اختلاف طبقاتهم. وإذا أضفنا إلى ذلك الحريات للشعب تستطيع أن تقول إن هذا السلطان حقق لبنى وطنه ما لم يحقق لهم منذ سنوات طوال.

على أن رجال علاء الدين لم يرضوا عن السلطان الجديدة، لأنه أقصاهم عن مباشرة شئون الدولة، وعلولا على التخلص منه، وتزعم هذه الحركة أسد الدين، وقد انتقد هؤلاء المعارضون السلطان قطب الدين لسوء اختياره لموظفى الحكومة ورؤساء الدواوين ورجال البلاط، واتهموه بأنه يقضى وقته فى اللهو والعبث والاستماع إلى الغناء، وقاد أسد الدين المعارضة فى مؤامرة كبرى تهدف

إلى قتل السلطان قطب الدين وهو فى طريقه إلى دهلى، وتوليته أى تولية أسد الدين السلطنة.

لم يقدر لهذه المؤامرة النجاح فقد أخطر كبار رجال الدولة السلطان بالمؤامرة قبل تنفيذها، فتدارك الأمر فى أوله وتلاحقه فى ابتدائه قبل أن تضطرب نار الثورة، ويعم الكرب ويشتد البلاء، فأمر السلطان بالقبض على زعيم حركة الانقلاب المرتقب، وكل من اشترك وساهم فى محاولة قلب نظام الحكم من قريب أو بعيد، وأمر بقتلهم، وصادر لأموالهم، وكان انتقامه شديدا جدا من الثوار حتى أنه قتل أطفالهم، وشرد البعض الآخر فى شوارع دهلى لا مأوى لهم، ولا عائل يعزلهم، ولم يكتف بذلك، بل نصب المشانق فى دهلى وأقام مذبحة مروعة قتل فيها كل من ينتمى إلى البيت الحاكم بصلة وكل من تحوم حوله الشبهات باحتمال قيامه أو اشتراكه فى انقلاب ضده فى المستقبل، واستأصل الفروع والجذور من أسرة علاء الدين، وأسرف فى القتل وإراقة الدماء حتى نائبه الذى كان مخلصا له، واتهمه بالإهمال وعدم كشف المؤامرة فى حينها.

ولكن سياسة العنف هذه لم تقض على محاولة عزل قطب الدين عن العرش فقد ظهرت مؤامرة أخرى اختلف المؤرخون حول اسم السلطان الذى رشحه المتآمرون لتولى الحكم، وضربوا العملة باسمه، فيذكر مؤرخ متاخر أنه ابن خسرو خان بن علاء الدين، أما باراتى فلا يذكر ذلك وينفى اشتراك خسوخان أو أحد أبنائه فى المؤامرة، وعلى ذلك فإن الاسم الذى نقش على العملة، الملك شاهين – نائب السلطان على دهلى والذى قتله السلطان على أثر دخوله دهلى.

لم يكتف السلطان قطب عن أعمال العنف ضد أبناء علاء الدين لأنه كان يتوجس خيفة، ويخشى أن يتآمروا عليه، وينضم إليهم أنصار أبيهم، وهم خسرو خان، وشادى خان، وشمس الدين، وأمر بالقبض عليهم وإرسال أفراد عائلاتهم إلى دهلى، وهؤلاء الأمراء سملت عيونهم، وعاشوا فى المنفى فى شظف من العيش، وعمد السلطان إلى إذلالهم، فكتب إلى خسرو خان رسالة ذكر له فيها أنه

- أى خسرو خان - فقد بصره واعتلت صحته، وعرض عليه أن يفرج عنه، ويعينه حاكما على أحد الأقاليم، ويمنحه الألقاب والامتيازات المناسبة له، فى مقابل أن يتخلى عن زوجته دفال رانى التى قال إنه أصبح ذليلا لها، وطلب منه إرسالها إلى البلاط لتهدئة عاطفته نحوها وإعادتها إليه بعد ذلك جارية مطيعة. على أن خسرو خان قد حزن من هذه الرسالة، ورفض الإذعان لنداء السلطان، وتمسك بزوجته، بل آثر الموت على التخلى عن محبوبته، ورفض إجراءات السلطان له التى يهدف السلطان منها اغتصاب زوجته بالقوة، وقد تعرض خسرو خان فعلا للموت بسبب رفضه عرض السلطان فقد أمر باغتياله، وكان حدثا مروعا اهتزت له قلوب الناس فى كل مكان، ووصفه ابن بطوطة وعلم به مارمو بولو من بعض الهنود، ورواه غيره من الرواة. وأرسلت ديفال إلى دهلى، وأمر السلطان بقتل شادى خان، وشمس الدين وغيرهم واغتصب زوجاتهم، وشرد أطفالهم، وقد وصف لنا بارانى مدى استياء الناس من الجرائم التى اركبها قطب الدين ولكن على الباغى تدور الدوائر.

على أن أعمال العنف التى اتبعها السلطان مع أعدائه لم توقف المؤامرات ضده، ولم تخمد الثورات المعارضة لحكمه فى البلاد، بل زادت اشتعالا، وأبرزت هذه الانتقاضات ما قام به نظام الين أوليا، وهو رجل تقى ورع، طبقت شهرته الآفاق،ووفد إليه الناس من كل صوب وحدب للزيارة والتبرك، وكان علاء الدين يقدره ويعتز به، أما قطب الدين ناصبه العداء، وخشى من تجمع الناس حوله لما فى ذلك من خطورة عليه، إذا قاد هذه الجموع فى حركة غزو ضده فمنع النبلاء وكبار رجال الدولة من زيارته، وحاول إضعافه وإبعاد الناس على التفرق من حوله، كما حرض المشايخ الكبار فى الدولة عليه ولم يكتف بذلك بل أمر بقتله حتى يخمد ما قد يثيره هذا الشيخ من متاعب فى وجه هذا السلطان الظالم.

أدت سياسة السلطان الداخلية المتسمة باليقظة إلى توقف الحركات الاستقلالية فى الكوجرات ودكا، ولكن قسوته على خصومه وإسرافه فى إراقة الدماء،

واستبداده وعدم استماعه لنصح الناصحين، أدى إلى اشتداد كراهة الناس له، وتطلعهم إلى التخلص منه، وبذلك فقد ثقة الرعية به، وازداد بطشه بالناس، وقضى أيامه فى لهو وعبث ومجون بلاطه المغنين والمغنيات والراقصات.

لم تتوقف المؤامرات ضد هذا السلطان على الرغم من بطشه بأعدائه، فاندلعت ثورة ضده فى ديفاكيرى قادها يال لاخى Yaklakhi فعول السلطان على إخماد هذهى الفتنة وأرسل فرقة من الجيش لقمعها، ولكن الثائر لم يعد العدة الكافية لصد جيش السلطان، وكان يعتقد أن جند السلطان سينضمون إليه نظرا لحالة التذمخر السائدة فى البلاد، ولكن حدث ما لم يكن يتوقع، فهاجمه جيش دلهى، وخشى رجاله سوء العاقبة، فانفضوا من حلوه، وعندئذ ضعف أمر الثائر، فقبض عليه جند دهلى وأمر السلطان بقطع أنفه وأذنه، وبذلك فشلت هذه الحركة، واشتدت قبضة السلطان على الدولة، وتأكدت سيطرته الكاملة عليها من جديد؟

ولكن طغيان قطب الدين واستبداده لم يتوقف محاولات قتله واغتياله، فتعددت المحاولات للتخلص منه وكان أخرها مؤامرة وزيره خسرو، فقد نجح فى ضم بعض النبلاء إليه، وعاهدوه على النصرة والتأييد، وانضم إليه الكثير ممن لحقهم الضيم على يده.

بدا الوزير مؤامرته ضد السلطان، بأن أقنعه بأنه أى السلطان يخرج فى حروب كثيرة، ويجب فى غيابه أن يطمئن على الأمن والنظام فيدهلى، ولا يستطيع أى خسرو الاطمئنان لأحد فى هذه المهمة سوى رجاله المقربين من الكجرات، وأغدق عليهم خسروا الأموال، وأعطاهم خيولا وأسلحة وملابس، واستكثر خسرو منهم، حتى صاروا حوالى أربعين ألفا كلهم طوع أرادته ورهن إشارته. وبذلك عظم شان خسرو خان وقوى أمره، واشت بأسه، وعهد إلى رجاله بحراسة القصر، فأصبح هذا السلطان تحت رحمة وزيره، ودبرت المؤامرة، وكان من اليسير جدا نجاحها وتنفيذها وفقا للخطة المرسومة، فأمر خسرو رجاله

بقتل السلطان، فانهالوا عليه ضربا بسيوفهم حتى قتلوه وألقوا رأسه فى فناء القصر. وبذلك تجرع هذا السلطان من نفس الكأس الذى أسقاه للكثيرين فى ابريل سنة ١٣٢٠م. وخاب كل جبار عنيد.

وقد لحق الناس من السلطان قطب الدين الكثير من المظالم، على الرغم من أنه بدأ عهده بالعدل بين الرعية وإصلاح أحوال البلاد، ولكن المؤامرات العدية التى تعرض لها جعلته غير مطمئن على نفسه وعلى ملكه، فاشتد فى قمعها وقلب على شعبه ظهر المحن، فطغى وتجبر، بل أساء إلى مشاعر الناس الدينية، فأهمل المراسم الدينية كالظهور فى الصلاة، والاحتفالات فى رمضان والعيدين وأساء إلى الدرويش نظام الدين، وعلى الرغم من ذلك فقد لقب بألقاب لا يستحقها، مثل خليفة، الأعظم أمير المؤمنين.

ومهما يكن من أمر فقد عبر خسرو خان عن سخط شعب المملكة الهندية على سلطانها، وتخلص منه، لذا نادى به النبلاء ورجال الدولة، وتربع على عرش سلطنة دهلى، ولقب ناصر الدين خسرو شاه، وأمر بالدعوة له فى الخطبة وعلى أنه أمير المؤمنين.

ولى خسر وشاه العرش فى هذه الظروف العصيبة، ولما كان مدينا لبنى قومه من الكجرات فيما بلغه من جاه فقد خصهم بالمناصب الرفيعة فى الدولة، واعتمد عليهم فى شئون الحكم على أن هذا السلطان الجديد اتخذ سياسة تختلف كل الاختلاف عن سياسة أسلافه من الحكام المسلمين، فقد أباح لكفار الهنود إظهار نحلهم ومللهم والتعبير عنها علنا، فنصبوا أصنامهم فى كل مكان، وازداد الأمر خطورة، فاستفزوا شعور المسلمين، ومزقوا المصاحف، ووضعوا أصنامهم فى القصر الملكى، وهاجموا المساجد واقتحموها، ومنعوا المسلمين من تأدية شعائرهم فيها، بل نصبوا أصنامهم فى بيوت يذكر فيها اسم الله.

واغتصبوا البنات المسلمات. ومن الطبيعى أن يرضى كفار الهنود عن السلطان فالتفوا حوله وناصروه، ورأوا فيه خير كعين على المحافظة على شعائرهم

وإظهارها والانتقام من المسلمين، ولم يكتف هذا السلطان بالتغاضى عن إيذاء شعور المسلمين الدينى بل فرض عليهم الأموال، وأغدق عليهم.

وبرر السلطان تصرفه هذا بأنه انتقام من المسلمين الذين دمروا معابدهم، ودمروا أصنامهم، وأحرقوا كتبهم، لذلك يرى البعض أن حكم هذا السلطان مظهر الردة عن الإسلام، ونستبعد ما يذكره بارانى بأن السلطان أراد أن يعيد الوثنية إلى الهند، ويعيد البلاد إلى حكم راجات الهنود، ذلك أنه دخل الإسلام وهو طفل صغير وعاش ونشأ فى الحياة الإسلامية وكان شديدا قاسيا حينما اشتبك فى دكا مع كفار الهنود قبل توليته الملك، بل كان أكثر قسوة من أى حاكم مسلم، وفى نفس الوقت ظل على دينه وعقيدته وإن ظل تاركا حركة اضطهاد المسلمين من كفار الهنود تسير فى مجراها دون أن يتدخل لإنهائها أو يشترك فى دفعها، وأبقى على الحكام المسلمين فى الولايات، وربما أراد السلطان بذلك كسب محبة وتأييد فريق كبير من الناس للوقوف إلى جانبه ومناصرته ضد حركات التمرد التى انتشرت انتشارا واسعا ضد هذا السلطان دهلى، ويقودها عادة كبار الدولة من المسلمين ضد هذا السلطان الوضيع الذى ينتمى أصلا إلى طبقة جامعى القمامة فى الهند الغربية، فقد عجل بنهايته بسياسة الغاشمة التى آذت شعور المسلمين، وساد التذمر بينهم، وأعدوا عدتهم للخلاص من هذا الحاكم - ناصر الكفرة الملاعين.

وقد قاد تغلق حركة المعرضة ضد السلطان، فزحف بجيش كبير يضم خيرة جند شمال غرب الهند وصناديدهم، إلى دهلى، فأرسل خسرو خان جيشا لصد عدوه، وقد تناقص جيشه بعد فرار الجند الغيورين على دينهم منه، وانضمام بعضهم إلى جيش تغلق، ومهما يكن من أمر فقد التقى الجمعان فى ديوبالبور De-opalpur وهزم الجيش الملكى، وتفرق الجند، ولاذوا بالفرار، بل فر قائد الجيش الملكى، تاركا الأسلحة والخيول والفيلة والأموال ومهمات الجند واستحوذ جيش تغلق على هذه الغنائم، ثم زحف تغلق وجنده إلى دهلى، وانتظر السلطان مصيره المحتوم وقدره الذى حدده بسياسته الغاشمة.

سار تغلق وجنوده إلى دهلى لا يعترض طريقهم معترض، ولما اقترب تغلق منها نصب معسكره، ودعا الناس فى دهلى إلى طاعته، ولقيت دعوته من أهل دهلى الذين كرهوا خسرو خان الذين أذى شعورهم ومعتقداتهم ثم دارت المعركة الفاصلة سنة ١٣٢٠ بين جيش تغلق وجيش السلطان انتهت بهزيمة جيش السلطان ومقتله أى السلطان وألقيت رأسه فى فناء القصر، كما ألقيت رأس مبارك شاه. وبذلك انتهى حكم خسرو خان بعد أربعة أشهر وبنهايته انتهى حكم سلاطين الخلجيين فى بلاد السند.

* * *

٣ - الأحداث الداخلية فى سلطنة دهلى الاسمية فى عهد بنى تغلق

ينسب آل تغلق إلى نصر تركى، وكان يقيم فى الهند منذ زمن طويل، وأول من حكم سلطنة دهلى من هذه الأسـرة، غياث الدين تغلق شـاه، قدم بلاد السند فى خدمة بعض التجار فى أيام السـلطان علاء الدين، ودخل فى خدمة أولو خان - أمير السند إذ ذاك فظهرت شجاعته، وتدرج فى سلك الفروسية، حتى صار أمير الخيل، وكـان اولو خان يعـده من كبار الأمـراء، وسمى بالملك الغـازى لأنه صد الكثير من غزوات المغول وهجماتهم، وحاصرهم ونكل بهم، ولما ولى قطب الدين ولاه مدينة دبال وأعـمالها، وعهد إلى ابنه مـحمد تغلق بإمارة الخـيل وظل يشغل وهذا المنصب فى عهد السلطان خسرو شاه، فلما استاء تغلق من خسرو شاه الذى اغتصب الـعرش، وقتل السلطان، وأباح للهنود الوثنيـين إظهار نحلهم، والتنكيل بالمسلمين، وأظهر أمورا منكرة منها النهى عن ذبح البـقر على قاعدة كفار الهنود، وأعلن - أى تغلق - الثورة والخـروج على الطاعة، وكان له ثلاثمائة مـن أصحابه الذين يعتمد علـيهم فى القتال، وكتب إلى كشلوخان - أمـير الملتان - يطلب منه القيام بنصـرته والأخذ بثأر قطب الدين لسابق فضله وإخلاصـه، ولكن كشلوخان اعتـذر لأن ابنه فى خدمة السـلطان فى دهلى، فحرض تغلق ابنـه باصطحاب ابن كشلوخان، والهرب معا من دهلى، فلحق الرجـلان بتغلق، وحينئذ واتت الفرصة تغلق، فحشد أنصاره، وأعد العدة، والتـف حوله الكثير من الناس، فقوى أمره، واشتد بأسه، وانضم إليه كشلوخان وزحف الجيش الثائر إلى دهلى - كما أوضحنا - وهزم تغلق جيش السلطان بقيادة أخيـه - خان خانان - واستولى على خزائنه، وشتت شـمل جنده، وقصد تغلق دهلى، وخـرج إليه خسـروخان فى عسـاكره، وفرق الأموال على أنصاره، ودارت رحى معركـة بين الفريقين انتهت بهزيمة تغلق غير أن الجند السلطانى انشـغل عقب المعركة فى جميع الغنائم فبـاغتهم جند تغلق على حيـن غفلة منهم، وهزمـوهم شر هزيمـة، ولاذ من نجا من العـدو بالفرار،

فدخل جند تغلق دهلى لايعترضهم معترض، ولا يعوق عائق، ودخل تغلق القصر الملكى، وجلى على السرير الملك، وقدم لناس لمبايعته، وبذلك انتقل حكم سلطنة دهلى من الخلجيين إلى بنى تغلق.

لم يقدر لسلطنة دهلى الإسلامية الهدوء والاستقرار فى عهد بنى تغلق، وإنما كثرت القلاقل والاضطرابات فى الدولة وتعرض سلاطين هذه الأسرة للمؤامرات التى تستهدف بالدرجة الأولى انتزاع كرسى الحكم منهم، بل تآمر الابن على أبيه، كما حدث سنة١٣٢٥، ذلك أن محمد بن تغلق ثار على أبيه، وكان الأب ينقم على ابنه تقربه للوالى نظام الدين البذوانى، وساءت منه أمور منها استكثاره من شراء المماليك وإجزاله العطايا واستجلابه قلوب الناس، فلما عاد تغلق من سفره، أمر ابنه بإقامة قصر فى الطريق إلى دهلى، وأقام محمد بن تغلق القصر ومعظم بنائه من الخشب، وصمم هذا القصر بحيث إذا وطئته الفيلة، وقع ذلك القصر وسقط، ونزل السلطان بالقصر، وأطعم الناس وتفرقوا، واستأذنه ولده فى أن يعرض الفيلة بين يديه وهو مزينة فأذن له، فلما وطئت الفيلة القصر، سقط الكشك على السلطان وولده محمود، ولقى السلطان حتفه، ودفن بخارج البلدة التى سميت باسمه، تغلق آباد، وبها كانت خزائن تغلق وقصوره، وبها القصر الأعظم، واستولى محمد على هذه الكنوز، وولى السلطنة، ولقب أبو المجاهد محمد شاه.

كان السلطان محمد بن تغلق غريب الأطوار، فهو أحب الناس إلى إغداء العطاء، وإراقة الدماء، فلا يخلو بابه من مغن يغنى أو حى يقتل، وله حكايات كثيرة فى الكرم والشجاعة، والفتك والبطش بذوى الجنايات، وهو أشد الناس مع ذلك تواضعا، وأكثرهم إظهارا للحق والعدل ويتشدد فى تأدية الفرائض الإسلامية، ويعاقب تاركى الصلاة وفاطرى رمضان.

رأى السلطان محمد بن تغلق نقل حاضرة دولته إلى مدينة ديوكور لحصانتها وتوسطها مملكته الواسعة المترامية الأطراف، ولكى يأمن من خطر المغول الذين

يهاجمون دهلى من وقت لأخر، وأسمى العاصمة الجديدة دولت أباد، وأمر سكان دهلى بترك بلدهم، والهجرة إلى العاصمة الجديدة طوعا أو كرها، وشق الطرق المؤدية إلى دولت أباد، وحمل سكان دهلى أمتعتهم، وهاجروا من مدينتهم الحبيبة إلى قلوبهم كارهين، وساروا إلى مقرهم من مدينتهم على كره منهم فى رحلة شاقة ذاقوا ألوان العذاب، وهلك كثيرون منهم، وخربت دهلى بهجرة أهلها منها، وأصبحت بلدة موحشة، تبكى قصورها ودورها من شيدها وبناها صرحها. أما المهاجرون من ديارهم وبلدهم، فلم يستطيعوا المعيشة فى المدينة الديدة، وقاسوا ويلات الجوع والحرمان، لأن سبل المعيشة فيها غير متوافرة وغير كافية للقادمين الجدد وقد ارتكب السلطان خطأ جسيما لأنه لم يراع الشروط الواجب توافرها فى تشييد المدينة الجديدة، فيجب أن تقع فى بقعة زراعية تكفل لسكانها العمل والعيش، أو على طريق تجارى، يضمن لأهلها المعيشة من عمليات البيع والشراء فضلا عن طيب الهواء للسلامة من الأمراض.

ومهما يكن من أمر فقد تراجع السلطان عن قراره بعد أن أدرك فشل مشروعه، وأمر أهل دهلى بالعودة إلى بلادهم، غير أن دهلى قد تطرف إليها الخراب والدمار، ولم تعد تصلح للحياة، فشيد السلطان لهؤلاء القوم الذين قاسوا الشدائد من سياسته الغاشمة، مدينة قرب دهلى، كفل لهم فيها أسباب الحياة الميسرة، والأمن الغذائى.

لم تستقر الأمور فى سلطنة دهلى فى عهد محمد بن تغلق فقد قامت ضده عدة ثورات، وحركات استقلالية، واضطربت الدولة اضطرابا شديدا فغادر السلطان دهلى - على الرغم مما كانت تقاسيه من مجاعة - إلى إقليم الدكن، لقمع ثورته، لكنه اضطر إلى العودة إلى دهلى بعد أن فتك الوباء بجنده سنة١٣٣٥م، كما أعلنت البنغال الاستقلال عن دهلى بقيادة فخر الدين، ولم يستجب أمراء البلدان المجاورة للبنغال لأوامر السلطان بالخروج إلى البنغال، وقمع الثورة مما يدل على أن سلطان دهلى قد فقد نفوذه فى تلك البلاد.

وعمت الفتن والاضطـرابات لاهور وديوكور وغيـرها من الولايات الهندية، ولم يستطع السلطان القضاء على هذه الفتن، وتوفى سنة ١٣٥١م بعد أن تدهورت سلطنة دهلى، واستقلت معظم ولاياتها.

لم يكن للسلطان مـحمد بن تغلق وريث يخلفـه، لذا ولى ابن عمه فـيروز تغلق الحكم من بعـده، وقد حكم هـذا السلطان بالعدل، وسـار فى الناس سيـرة حسـنة، غير أنـه واجه المتاعـب الداخلية، فـقد ظلت البنغـال على تمردها وتزعم الحركـة الانفصاليـة فيها "حـاجى إلياس"، لذا لم يتغـاض هذا السلطان عن هذه الحـركـة، وعول عـلى إعادة الـبنغـال إلى حوزتـه، وأرسل منشـورا إلى الأهلين يدعوهم إلى الاستسلام والعودة إلى الولاء والطاعة إلى الولاء والطاعة إلى سلطان دهلى، ووعدوهم بالعفـو والصفح، ورفع الضرائب عنهم سنة كاملة إن اسـتجابوا لندائه، وأذاع فى منشـوره بأنه مفـوض من قل الخليـفة العـباسى بالقـاهرة، وأن الخروج عليه خـروج على الإسلام، وسار هذا السلطان إلى البنغـال، وطهر البلاد من طريقه من المتـمردين، ودخل إقليم "جنجنكر" ودخل الراجا فى طاعـته، بل اعـتنق الإسـلام، كـما أن حكـام المدن المجاورة، أقـبلوا علـى السلطان مـعلنين إسلامهم، والدخول فى طاعته.

كذلك عـاد "الزط" فى لاهور وما جاورها إلى التـمرد والعصـيان، فعـهد فيروز شـاه إلى أحد قواده لقمع حـركة الزط، فدخل معـهم فى معركة حـاسمة، أدت إلى هزيمتهم، وأسر زعيمهم.

أما عن الدكن فقـد اتجه أهلها إلى الاستقـلال عن دهلى، وتمكنوا منه فعلا منتهزين فرصة انـشغال السلطان بمتاعبه الداخلية والخارجـية، وقد تعددت الثورات فى الهند التى نتج عنها ضياع مساحات كبيرة من الأراضى من السلطة دهلى.

على أن هذا السلطان كان محـبوبا من رعاياه، فقد كان بارا بالفـقراء وأنشأ ديوان للخيرات لمسـاعدة الفقراء على قـضاء ضروريات حياتهم، وتقـديم معونات للفتيات فى حالة الزواج، وإعانة الأطفال اليتامى العجزة والشيوخ.

لكن سلطنة دهلى ظلت مسرحا للقلاقل والاضطرابات. ففى أواخر عهد السلطان فيروز شاه، فوض هذا السلطان أمور دولته إلى وزيره خان جهان ظفرخان، ولكن هذا الوزير أخل بالثقة التى منحا لها السلطان، واعتزم الاستحواذ على العرش، وإزاحة ولى العهد، "محمد بن فيروز" من طريقه حتى يخلوا له الأمر، وضم إليه فعلا بعض الأمراء ورجال الدولة، وحرض السلطان على خلع ابنه من ولاية العهد بتهمة أنه يتآمر عليه مع بعض أعدائه، ولكن السلطان فطن إلى سوء نواياه وزيره، وعزله، ومن ثم انفرد محمد بن فيروز بأمور سوء بأمر البلاد بلا منازع، ولكن هذا الأمير كان سيئ السيرة، قاد البلاد إلى الدرك الأسفل، وعكف على اللهو والعبث، بل اعتمد على عناصر السوء فى البلاد وخارجه، فثار عليه الأمراء ورجال الدولة، والتفوا حول ابنى أخى السلطان، "بهاء الدين وكمال". وبذلك أصبح فى دلهى فريقان يتنازعان السلطة والنفوذ، وتصدى كل فريق للآخر، وتدهور الوضع فى البلاد تبعا لذلك، ودارت معارك دامية فى شوارع دهلى بين الفريقين، فلم ير السلطان الشيخ بدا من الخروج من عزلته، وظهر للناس، وأقنعهم بلزوم الطاعة والهدوء والسكينة، والتوقف عن أعمال الشغب، وكان النداء هذا السلطان الطيب تأثير كبير فى قلوب الأهلين، فهدءوا واستكانوا، وكفوا عن إثارة الفوضى والفتن.

عزل السلطان ابنه محمد من ولاية العهد لأنه من عوامل الاضطرابات فى دهلى، وأسند ولاية عهده إلى حفيده غياث الدين بن فتح خان، ولم يلبث أن توفى السلطان الشيخ، وولى حفيده الشاب الحكم. على أن السلطان الجديد لم يكن جديرا بتولى مهام الحكم، وهو من غضاضة الشباب، فقد انصرف إلى اللهو والعبث وأغفل مشورة الأمراء وأهل الحل والعقد فى الدولة، فثاروا ضده، وكثر المعارضون له، وقاد الحملة ضده ابن عمه أبو بكر، وهاجم الثوار القصر الملكى، فلاذ السلطان بالفرار منه، على أن الثوار لحقوا به، وقتلوه بعد أن حكم البلاد ما يقرب من خمسة أشهر، وولى أبو بكر السلطنة.

على أن محمد بن فيروز لم يتغاض عن حركة ابن عمه أبى بكر، واغتصابه العرش، فجمع حوله الكثير من الأنصار فى الدؤاب وقوى أمره، واشتد بأسه، ودخل دلهى واقتحمها، وقبض على السلطان الجديد أبى بكر سنة ١٣٩١، وولى هو السلطنة. على أن البلاد لم تهدأ فى العهد الجديد، وإنما ظلت مضطربة متوترة، وتناقش الأمراء ورجال الدولة حول السلطنة والنفوذ، وانقسم الناس إلى أحزاب وشيع، حتى جنح كثير من حكام الولايات وأمراء الهنادكة إلى نبذ سيادة دهلى والاستقلال بما فى أيديهم من بلاد وحصون.

وظلت سلطنة دهلى فى هذا الوضع المضطرب حتى آخر سلاطين آل تغلق سنة ١٤١٢ ونصب أعيان دهلى دولت خان - من الأسرة اللودية - حلكما على البلاد، وتعرضت سلطنة دهلى للغزو التيمورى فى الفترة من ١٣٩٨ حتى ١٤٩٠م الذى أهلك الحرث والنسل، وأتى على الأخضر واليابس، وأقام الخضر خانيون - الذين خلفوا آل تغلق - دولتهم فى دهلى فى ظل الدمار، وكان خضر خان أول أفراد هذه الأسرة من أمراء فيروز شاه التغلقى، وكان واليا على الملتان، ولما توفى محمود شاه التغلقى أعلن استقلاله.

* * *

الإمارات المستقلة فى عهد الهند عن دهلى

لم يكن سلطان دهلى طوال العصور الوسطى قادرا على السيطرة على الولايات التابعة للملكته، ومن ثم استقلت بعض الولايات عن دهلى وخصوصا البعيدة النائية عنها، حتى اندمجت نهائيا فى إمبراطورية المغول، وهذه الإمارات "Jaunpur Mandu" وكشمير والبنغال، واستقلت كذلك مملكة "الكجرات" سنة ١٤٠٠وشيد السلطان أحمد شاه ١٤١١ - ١٤٤١مدينة أحمد آباد لتكون عاصمة لمملكة الكجرات، وتقع فى وسطها، وتشتهر هذه المملكة بثرائها، وتقدمها فى صناعة المنسوجات الحريرية والقطنية، وتتصل بالبحر بسهولة ويسر، وقد أشاد الزوار الأجانب بمدينة أحمد آباد، وذكر بعضهم أنها من أجمل مدن الأرض وشبهها آخرون بالبندقية.

ومن أشهر سلاطين الكجرات" "محمد بيجارها" (١٤٥٠ - ١٥١١) وكان له تأثير كبير على الزوار الأجانب مثل الرحالة الإيطالى Ludovico varthema، ومظهر هذا السلطان أثار الدهشة، طويل القامة، له شنب كثيف، ولحية تتدلى إلى وسطه، ويتخذ أدوية تحصنه من السم.

ولى محمود العرش فى سنة الثالثة عشرة، ورغم صغر سنه استطاع أن يسيطر على البلاد وتغلب على خصومه، وسيطر على البلاد المجاورة وتغلب على دولة Champanir الهندية ودخل خلفائه فى حروب مع الراجيوتيين فى وسط الهند، وفى سنة ١٥٣٤ استولى السلطان محمود (١٥٢٦ - ١٥٣٧) على "شيتور" ولاذ أميرها بالفرار، وألقت النساء فى هذه البلدة بأنفسهم فى النار حتى لا يقعن فى الأسر، وتعرض رجال شيتور لسيوف المسلمين، ومزقوا شر ممزوق. على أنه فى العام التالى هزم سلطان دهلى "هيمايون" سلطان بهاور، ومن ثم سادت الفوضى والحروب والأهلية إمارة الكجرات حتى امتلكها الإمبراطور المغولى أكبر سنة ١٥٧٢.

واشتهرت العاصمة "أحمد آباد" بجمال مبانيها، وشيد بها العديد من المساجد، تميزت بارتفاعها ورشاقة مآذنها. وشيد السلطان محمود بجوارها قصرا على ضفاف بحيرة صناعية فى سارخيج، وتقع على بعد أميال قليلة من المدينة. على أن أهم إنجازاته العمرانية، المساجد الجامع فى شامبانير وبه قبة رائعة ومآذن وأعمدة، ومزين من الداخل، ونقشت على جدرانه آيات قرآنية، ويعد من أجمل المنشآت الدينية وأبهاها فى غرب الهند.

وفى سنة ١٣٤٧ خلال حكم محمد تغلق، انتهز ضابط أفغانى يسمى "حسن جانجو" الفرصة ليكون دولة مستقلة عاصمتها Culbaragae فى جنوب غرب الهند وتيمى دولة حيدر آباد، واستمرت مملكة "البهمانى" من سنة ١٣٤٧ حتى سنة ١٤٨٢، وامتدت فى إبان قوتها من البحر إلى البحر، واشتملت على حيدر آباد ومنطقة فى جنوب مدارس، وجزء من منطقة بومبى، ومن الطبيعى أن يدخل أمراء حيدر آباد فى حروب مع الحكام الوارثين انتزعوا منهم الحكم. وأشتمل بلاط ملوك البهمانى على مواطنين وأجانب. وقد تحيز ملوك البهمانى إلى الأجانب دون المواطنين الذين عمدوا إلى إضعاف شأنهم، وانتهجوا سياسة دعوة فريق من المغامرين من العرب وفارس وبلاد الأفغان، وأسندوا إليهم المراكز الهامة فى البلاد. وأدى ذلك إلى أحقاد عميقة. وزاد الأمر سوءا أن القادمين إلى البلاد من الشيعة. أما المواطنون فسنيون.

انقسمت مملكة البهمانى إلى أربع ولايات، تتمتع كل منها بقدر من الاستقلال، ولكل حاكم من حكام الولايات جيشه، ومن حقه فرض الضرائب وجبايتها من ولايته ويعين الموظفين الذين يساعدونه فى حكم الولاية. وبالجملة كان يشرف على الشئون الإدارية والمالية والدفاعية لولايته. أما السلطان فيساعده ثمانية وزراء، كل مسئول عن اختصاصه مثل المالية أو الشئون الخارجية، القضاء، الأمن... إلخ ونظم ملوك هذه الأسرة الجيش أحسن تنظيم.

لما توفى مؤسس هذه الأسـرة سنة ١٣٥٨ خلفه ابنه محـمد الأول وبدأ هذا الملك حكمه بأن حصل على تقليد بالحكم من الخليفة العباسى بالقاهرة حتى يضفى على حكمه الصفة الشرعية.

نشبت حـرب بين مملكة بهمـانى ومملكة Vijayanagar، تقدم فـيهـا جيش بهمـانى عبر أراضى العدو، ولكنه لم يسـتطع مهاجمـة أراضيها. وانتـهت الحرب بعقدة اتفاقية سلام بين الطرفين.

وولى "محمد الثانى" العرش سنة ١٣٧٨، وكان حاكما عادلا مصلحا شجع العلوم والآداب، ودعا إلى بلاطة الشاعر "حافظ بن شـيراز"، وشيد مدارس لأبناء المسلمـين اليتـامى، وحاول بكل مـا يستطيع تقـديم العون وتخـفيف المعـاناة عن الأرامل والفـقراء من النساء. ومـن سلاطين هذه المملكة الأقـوياء "فيـروز شاه" (١٣٩٧ - ١٤٢٢) كان حاكمـا مستنيرا ومصلحـا. وبلغت المملكة فى عهده أوج عظمتـها وازدهارها. ولقد فـرض السلام على مملكة Vijayanagar بعد أن لقـنها درسا قاسيـا على الرغم من قسوة جيشهـا وضخامته، فقد دبـر أحد ضباطه خطة ناجحـة بأن عهد إلى بعض جنده بالتنكـر فى زى مشعوذين، واسـتطاعوا اقتـحام مـعسكر العـدو، وألقـوا الذعـر بين الجنود الهنود، وفى خـلال ذلك تمكن الجند المسلمون من مهاجمة العدو، وهزموهم شر هزيمة.

وانتهت الحرب بين الفريقين بعقد معـاهدة سلام تعهد فيها راجا Vijayana-gar نتـقديـم فيلة ومـبـالغ من المال للسلطان فـيـروز شاه. وقـد له إحـدى بناته ليتزوجـها. وتزوج السلطان من ابنه الراجا. غيـر أن هذا الزواج لم يؤد إلى إرساء سلام بين المملكتين المتنافرتين.

ولقد شيد السلطان فيروز المنشآت الضـخمة فى مملكته، وكان يحب ويشجع العلوم والآداب والموسيـقى، واهتم بالدراسات الدينيـة فى مخـتلف الأديان، كان قصـره يضم نساء أوربيـات وهنديا، واستطاع السـلطان التفاهـم معهن بلغـاتهن. وانتهت حيـاة هذا السلطان بمؤامرة دبرها أخوه أحمـد الذى خلفه فى الحكم ونقل

هذا السلطان عاصمة بلاده إلى بدارBidar، وتقع فى نقطة هامة ترتفع عن سطح البحر قدر ٢٠٠٠ قدم، وإلى غربها سهل منبسط يضم أشجار المانجو والتمر هندى.

وآخر من حكم مملكة البهمانى، " محمد شاه الثالث" (١٤٦٣ - ١٤٨٢) ويرجع ما حققه من نجاح فى سياسته إلى وزيره "محمود جوان"، وينتمى إلى أسرة فارسية عريقة، وعرف عنه المهارة القتالية والحنكة الإدارية والعدالة والمقدرة السياسية والمالية، وكان يعيش حياة زهد وتقشف، وأسس مدرسة فى بدار، مثاها ضخم مرتفع، وغرف المحاضرات مضيئة وتشتمل مكتبة المدرسة على ثلاثة آلاف مجلد، وبالمدرسة غرف للأساتذة والطلاب ومسجد، والواجهة نقش عليها آيات قرآنية.

على أن السلطان قلب ظهر المجن على وزيره، فقد اتهمه بمحاولة خلع السلطان، وتنصيب نفسه حاكما مستقلا على المملكة. ولقد سعى حكام الولايات وكبار الموظفين إلى بث الوقيعة بينه وبين السلطان لأنه تشدد فى مراقبتهم، ولم يتهاون مع واحد منهم، فضلا عن أنه فارسى الأصل، وما زالوا بالسلطان حتى خشى من تأمر وزيره عليه، ووجه إليه السلطان تهمة الخيانة العظمى، ودافع الوزير عن نفسه، وأنكر التهمة، وحاول إثبات براءته، فحذر الوزير "جوان" السلطان من مغبة وعاقبة قتله ظلما، لأن ذلك سيؤدى إلى فقدانه لشخصيته وضياع ملكه. وقتل الوزير المصلح وهو فى الثانية والسبعين من العمر، وبعد أن خدم المملكة بإخلاص خمسة وثلاثين عاما. وبعد فترة من الوقت اكتشف السلطان أن وزيره قتل ظلما، فشعر بالذنب، وظل يتناول الشراب من الخمر، وهو يردد أن محمود جوان سيقطعه إربا وما زال يشرب حتى توفى.

أخذت المملكة فى الضعف والتدهور بعد وفاة هذا السلطان وعمت الفوضى البلاد، وساد القتال فى الشوارع بين المواطنين الهنود والوافدين الأجانب، وحكم البلاد ملوك كانوا ألعوبة فى أيدى القواد الأتراك. وظل الأمر كذلك حتى استعان

أخر ملـوكها بسـلطان المغول فى دهلى - بابر - لإنقـاذه من الفوضى السـائدة فى البلاد. ودخلت المملكة فى حوذة دهلى، وتوفى آخر ملوك البهامانى سنة ١٥٢٦.

نشأ مجتمع جديد فى المملكة البهمانى من تزاوج العناصر الأجنبية بالعناصر الوطنيـة. أما الفـلاح فى القرية فلم يطرأ جـديد على حيـاته إلا فى عهـد الوزير جوان، فقـد حقق الزراع دخلا كبيرا نتـيجة لسياسـته الاقتصادية واستـتباب الأمن والنظام فى البـلاد، وعم العمـران حتى تشابكـت القرى، ولقد وصف لـنا رحالة روسى "أثناسيوس" Kikitin (١٤٧٠ - ١٤٧٤) محـمود الثانى بأنه فى العـشرين من عمره، وعنده جيش ضخم يتكون من كشاة مسلحين وفيلة مهيأة لركابها، وفى كل قريـة مسجـد يتعلم فـيه الأطفـال القرآن الكريم، ويديرهـا القاضى بمقـتضى الشريعـة الإسلامية، وفى المدن مـدارس لتعليم اللغتين العـربية والفارسيـة، ولها أوقاف ينفق مـن ريعها على إدارتهـا، وأضف من شأن ملوك البـهمـانى، إدمانهم للشراب، الأمـر الذى تسبب فى ضـعف الإدارة الحكومية والـتدهور الاقتـصادى والإدارى وكثرة الحروب الأهلية.

وملوك البهـمانى، اهتمـوا عمومـا بالعمارة، ويتجـلى ذلك فى القلاع التى شيدوها فى طوال البلاد وعرضها، وأدى اختراع البارود إلى تقوية القلاع وأحيطت بأسوار ضخمة، أشهرها قلعة "دولت آباد".

قلنا إن مملكة البهمانى انقـسمت إلى أربع ولايات، ولما ضعفت هذه المملكة تطلع الولاة إلى الاسـتقـلال بولاياتهم، ومن أقوى هؤلاء الولاة " يوسـف عادل شاه" حاكم بيجابور، أعلن استقلاله سنة ١٤٨٩، وكان عبدا اشتراه الوزير جوان، وهو الابن الأصغر للسلطـان التركى مراد الثانى، حيث هرب فى وقت اسـتخلاف أخيـه وهرب من القتل، وتعرف جـوان على مقدرته وأسند إليـه وظيفة رئيسـية. وأثبت يوسف عادل شاه أنه حاكم قدير ومستنيـر، استفاد من أستاذه جوان، وترك المذهب السنى، واعتنق المذهب الشـيعى، وتزوج امرأة من Martha وأخلص لها، واستعـمل لغة المارتا فى المخاطبة، وكان ذلك من أسـباب تقرب الجنود له، وأسند

المناصب الرسمية للهنود، وبصفة فرشته بالحكمة والفصاحة والنجابة وكان موسيقيا بارعا وأديبا فذا، وحرص على بث الفضيلة بين وزرائه ورجال دولته وضرب المثل بنفسه، وحثهم على التعامل مع الأهلين بالعدالة والحكمة، وجلب إلى بلاطه رجالا أكفاء من فارس وتركستان والروم، وفنانين من مختلف البقاع والأصقاع، وكفل لهم الحياة الكريمة الهنيئة، ووضع لخلفائه المبادئ والأسس التى ينبغى للحاكم أن يتحلى بها.

ومن أبرز حكام بيجابور إبراهيم الثانى (١٥٨٠ - ١٦٢٦) واصل سياسة أسلافه الحكيمة، وشجع التجارة مع القوى الخارجية، وجلب إلى بلاطه الفنانين والأدباء، وتعاطف مع المسيحيين، ومحنهم أراض لإقامة كنائس، وأوجد مدينة Naurasbur كمركز أدبى ودينى، وآخر حكام بيجابور العظام، السلطان محمد عادل شاه (١٦٢٦ - ١٦٥٦) خضع للمغول مضطرا سنة ١٦٣٦م.

ومدينة بيجابور تقع على ألفى قدم فوق مستوى البحر، وبها أسوار دفاعية هائلة وعليها أبراج نصبت مدافع، وتمثل هذه المدفعية مهارة وسائل الدفاع، واشتهرت هذه المدينة بمدارسها وأساتذتها، ومن أشهر أساتذتها، محمد قاسم فرشته، قدم من إستراباد، واستقر فى أحمد ناجار، ولجأ إلى بلاط إبراهيم عادل شاه الثانى فى سنة ١٥٨٩. وتاريخه عن الإسلام فى الهند فريد من نوعه، كتاب فيه الأصالة والنقاوة، بعيد كل البعد عن التأثر ببلاط السلطان، والكتاب مرجعنا الرئيسى عن تاريخ الإسلام فى الهند فى الفترة ما قبل سنة ١٦١٢ وترجم إلى الإنجليزية بواسطة الكولنل Briggs. j سنة ١٨٢٩.

***

المراجع

د. عصام الدين عبد الرؤوف الفقى: بلاد الهند فى العصر الإسلامى منذ فجر الإسلام حتى الغزو التيمورى، دار الفكر العربى ١٩٩٦.

د. عبد الله محمد جمال الدين: التاريخ والحضارة الإسلامية فى الباكستان أو السند والبنجاب إلى آخر فترة الحكم العربى، دار الصحوة، القاهرة ١٩٩١.

د. عبد الله مبشر الطرازى: موسوعة التاريخ الإسلامية والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب (باكستان فى عهد العرب)، عالم المعرفة، جدة، ١٩٨٣.